المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب

.. وهبّت العاصفة

قصـــة طويلة

الفائزة بالجائزة الثانية فى مسابقة نادى القصة

عبدالوهاب الأسوانى

وهبت العاصفة

كنت أيامها فى إجازة نصف السنة الدراسية . . وفى ذلك اليوم بالذات كنت فى زيارة صديقى (هاشم) . . ابن عمدتنا . . وزميلى القديم فى مدرسة (البندر) . .

قال لى بعد أن تناولنا طعام الغداء فى مضيفتهم الصغرى :

– متى ستتزوج ؟

قلت له وأنا أشعل لنفسى سيجارة :

– قريبا إن شاء الله . .

قال وهو يمد يده السمينة ليتناول برتقالة من على المائدة الصغيرة :

– بعد إنهاء دراستك الجامعية . . أم قبلها ؟

– بعدها . .

مط شفته السفلى وقال :

– لا أدرى . . ما الذى أعجبك فى هذه البنت التى ليس فيها غير العينين ؟ وتذكرت عينى (بدوية) الحلوتين بأهدابهما الطويلة وقلت وكأننى أتحداه :

– وهل فى بلدك كلها عينان مثل عينيها ؟

رد وهو يلوح بيده :

— لاتنكر أنها مثل البوصة . . كنت أراها تسير مع بنات البندر فى طريقها إلى المدرسة فلا يعجبنى شكلها . . كانت مثل نساء السياح الذين يأتون لتصوير (البرية) . . جلدا على عظم !

مددت يدى إلى بطنه الكبير وقلت :

— ذوقك مثل كرشك . . القوام الرشيق فى نظرك (بوصة) . . معذور يابنى والله .

اعتدل فى جلسته وقال فى احتجاج مصطنع :

— حاسب . . لاتنس أنك تخاطب المرشح لعرش البلد . . يجب أن تكلمنى باحترام .

* * *

فى هـذه اللحظة ظهر والده . . العمدة . . رأيناه من مكاننا بالمضيفة الصغيرة يغادر المضيفة الكبيرة ، المقامة على مرتفع من الأرض ، ويقطع الساحة الكبيرة التى تظللها شجرتان ضخمتان من (اللبخ) فى طريقه إلى البيت . .

كان يسير بخطوات متمهلة . . وزعبوطه الواسع ذو الأكمام العريضة والذى يشبه الزى الكهنوتى يزيد من ضخامة حجمه . . وعباءته السوداء ترفرف حوله كالأجنحة .

نظرنا ناحيته بحركة لاشعورية ، وتابعناه بعيوننا حتى دلف إلى البيت . فقلت لهاشم مداعبا :

— أبوك يتبختر فى مشيته كأنه إمبراطور المغول . . ماهذا العز ؟

قال هاشم بلهجة جادة يخالطها الأسى :

— اسكت ياحسين . . أبى (زعلان) جدا هذه الأيام .

— لماذا ؟

— تعارك مع المأمور الجديد . . أصل حضرته ساخط على رؤسائه الذين نقلوه إلى أسوان . . وكل قرفه طالع على العمد والمشايخ .

— ماذا حدث بينهما ؟

— هاج فى أبى بلا سبب . . لكن أبى قال له : (لاتكلمنى بهذه اللهجة . . أنا رجل جعفرى . . كرامتى فوق الدنيا ومافيها) ولم يعجب هذا الكلام المأمور . . فقال لأبى (أنا سأرفتك) فقال له أبى : (أنا لا أنتظر أن يرفتنى أحد . . سأستقيل فى الحال) وفعلا . . كتب أبى الاستقالة . . لكن بقية العمد تدخلوا فى الأمر . . وغادر أبى المركز إلى البلد وهو (زعلان) . .

— متى هذا الكلام ؟

— أول أمس

— ألم يصطلحا ؟

— لا . . ولكن بلغنى أن أحد العمد ذهب إلى الشيخ موسى الكاظم ورجاه أن يتدخل للصلح .

وتذكرت الشيخ موسى الكاظم . . . ذلك الرجل الذى يشبه الأسطورة . . والذى فاق نفوذه وسلطانه الروحى على الأهالى كل وصف . . لاسيما بعد أن أتم دراسته الأزهرية ووزع ثلاثة أرباع أملاكه — بعد وفاة والده — على المعدمين ، ثم اعتكف فى خلوته لايخرج منها إلا نادرا .

وقلت لهاشم :

— وهل عرف المأمور الجديد بمكانة الشيخ موسى الكاظم . . أم أنه سيصطدم به وتكون الطامة ؟

فرد هاشم وهو يعقد مابين حاجبيه :

— ضرورى عرف . . وإن لم يكن قد عرف فلن يعدم من يخبره . . ولكن المهم ليس فى المأمور . . المهم هو هل يوافق الشيخ الكاظم على الصلح ؟

— سيوافق .

— وما أدراك ؟

— الذى أعرفه . . أن الشيخ الكاظم يخرج من خلوته إذا عرف أن زواره من المتخاصمين الساعين للصلح .

— أبدا . . لاتصدق . . الشيخ الكاظم رجل مبروك فعلا . . ولكن تصرفاته عجيبة .

— كيف ؟

— مضيفته التى بجوار (الخلوة) لاتخلو من الزوار . . من جميع البلاد ، ومن مختلف الطبقات . . ولايخرج عليهم إلا إذا جاء مزاجه .. وأكثر الذين يذهبون إليه . . يعودون كما ذهبوا . . مع أن خلوته . . كما تعلم . . فى آخر قريته وعلى حدود الصحراء ولا يصل إليها الإنسان إلا بطلوع الروح .

— ما السبب فى رأيك ؟

— الكلام كثير . . أنا أصدق بعضه . . وأتعجب من بعضه الآخر . . يقولون هو لايخرج إلا على الناس المحبوبين من الله . . هكذا يقولون .

— هل رأيته ياهاشم ؟

ظهر الابتهاج على وجه هاشم النحاسى وقال :

— مرة واحدة . . تصور أنه سلم على ووضع يده على أسى دون أن يسلم على أحد غيرى فى ذلك اليوم !

ثم ضحك هاشم وقال وهو يدق صدره فى مرح :

— من يومها . . عرفت بأننى سأتولى عرش البلد أو أدخل التاريخ !

— أين ؟ . . أعنى أين رأيته ؟

— يوم صلح عمدة (بنى سالم) مع عمدة (السلماب) .

— تقصد صلح (الزواج) ؟

ضحك هاشم وقال :

— نعم . . تصور أن الناس تعبوا فى مصالحة العمدتين . . وكلما وفقوا بينهما عادا إلى الخصام من جديد ؟ . . فى النهاية أخذوهما إلى خلوة الشيخ . . وكان أبى هناك وكنت معه ومعنا حوالى عشرة عمد — وخرج علينا الشيخ . . ياسلام لورأيته . . ذقنه البيضاء فى لون القطن النظيف . . وجلبابه الأبيض يكاد (ينطق) على وجهه الأسمر الذى يتلألأ منه النور . . نظر إلى العمدتين المتخاصمين وقال لهما : (ابن هذا يتزوج من بنت هذا . . أفهمتم ؟) . . فقالا له فى نفس واحد (أمرك يامولانا) . . تصور بقية العمد كانوا يقفون أمامه مثل الأرانب ؟ . . والعجيب أنه قال هذه الجملة وتركنا وانصرف إلى خلوته دون أن يرد علينا حتى السلام !

ثم استدرك قائلا وهو يضحك :

— أبى فقط كان يقف فى شجاعة . . أصله طالع لابنه !

قلت له :

— مادام الشيخ الكاظم هكذا كما تقول . . والمأمور لايزال جديدا لايعرف عن الشيخ شيئا . . فكيف سيتم الصلح ؟

قال وفمه مشغول بالتهام البرتقال

— لاتحمل هما لهذه الحكاية . . . حتى إذا لم يتم الصلح عن طريق الشيخ . . سيتم عن طريق المأمور نفسه !

ثم تنهد فى أسف وقال :

— مساكين نحن أهالى أسوان . . جميع الموظفين عندنا من المضطهدين المنفيين . . كلهم لا أهل لهم ولا (وسايط) . . وحتى لو جاءنا واحد ابن ناس . . يتضح أنه (مشاغب) وأن ناسه أنفسهم لايريدون رؤيته !

قلت له وأنا أضحك :

— لكن لاتنس أن فيهم الأحرار الذين يقولون رأيهم فى شجاعة . . فيغضب عليهم الرؤساء . . ويكون نفيهم عندنا من حسن الحظ ؟

قال مدافعا عن رأيه !

— حتى هؤلاء . . يأتون إلينا بإحساس المضطهدين فنرى منهم النجوم فى عز الظهر !

— لاتغالط . . هذا لايستمر أكثر من أسبوع واحد . . بعدها يندمجون معنا ويقولون لنا (لم نكن نعلم أنكم بهذه الطيبة . . وأنكم تحبون الناس هكذا) . . وعندما ينقل الواحد منهم إلى منطقة أخرى يظل يبكى إلى أن يركب القطار .

هز هاشم رأسه . . فاهتز طرف عمامته الكبيرة الذى تعمد تركه ينسدل على جانب وجهه كنوع من أناقة الشباب وقال :

ـ خلنا فى المهم . . أنت لم تقل لى عن الذى أعجبك فى البنت التى مثل البوصة !

قلت وأنا أعدل من وضع المسند الصغير على سرير الحبال الذى أجلس عليه :

ـ ألم تمدح عينيها منذ قليل ؟

قال وكأنه يحتج :

ـ وهل هذا يكفى لكى تترك بلدنا كلها وتتروج من بلدة ثانية ؟

ـ أنا لا أعتبر بلدة (السبيل) بلدة ثانية . . بالعكس . . أنا أعتبرها بلدنا . . علاوة على أن . .

فقاطعنى قائلا :

ـ أنت تعتقد هذا لأنك أهبل . . لكن الحقيقة أن أهل السبيل هم أشد أعدائنا وأكثرهم كرها لنا وحقدا علينا !

قلت مداعبا لما رأيت انفعاله :

ـ ولا يهمك . . بعد زواجى منهم سأكون أول سفير لبلدنا عندهم . . ويوم الدخلة أقدم أوراق اعتمادى لعمدتهم . . وأوقع معه معاهدة صلح مستديمة . . يعجبك هذا ؟

وتأفف هاشم من ذكر عمدة السبيل .. فقال فى ضيق :

— أعوذ بالله منه « بنى آدم » . . أنا لا أطيقه ولا أطيق كلامه .. تصور أنه قابلنى يوم الخميس وكان يكلمنى من طرف أنفه ؟

قلت له وأنا أتعمد إغاظته :

— له حق . . هل نسيتم أنكم كنتم من رعاياه فى يوم من الايام . . عندما كانت بلدنا تابعة لعموديته ؟ . . وأن أباك — بكل جلالة قدره — لايزيد فى نظره عن (حاكم) صغير على بلدة صغيرة كانت فى يوم من الأيام (مستعمرة) من مستعمراته !

ضحك هاشم وقال وهو يضرب صدره :

— إنك تمدحنى الآن !

— كيف ؟

— لأن بلدكم كانت مستعمرة ولما ظهر جدى — الله يرحمه — حرركم من الاحتلال !

— وما الذى كسبناه من جدك غير أنه فصل بلدنا عن (السبيل) . . وفتح بينهما عداوة لاتنتهى ؟ . . وكل هذا . . من أجل أن يكون — سيادته — عمدة !

ضرب هاشم المائدة بقبضة يده وقال فى ثورة مصطنعة :

— أهـذه طريقة تتكلم بهـا عن جدى العظيم ياشعبا ناكرا للجميل ؟ ! . . لولاه لكنتم — حتى الآن — ترزحون تحت سيطرة السبيل وعمدة السبيل .

وفوجئنا بالشيخ (علوان) يدخل علينا . . رجل فى حوالى الستين من عمره . . قصير القامة . . أسمر اللون . . يعتبر من زعماء القبيلة التى ينتمى إليها العمدة . . هب له هاشم واقفا بمجرد أن رآه . . وتخلى له عن مكانه . . لكنه سلم على وجلس بجوارى وهو يلملم زعبوطه الأسود الواسع . . وقال بمجرد أن جلس :

— سمعتكم تتحدثون عن أهل السبيل . . مالهم ؟

فقال له هاشم فى لهجة جادة وفى احترام شديد .

— لاشئ . . فقط كنا نتحدث عن بلدنا عندما كانت تابعة لعموديتهم .

فعقد الشيخ علوان مابين حاجبيه الأشيبين وقال فى انفعال :

— ملعون أبوهم ! . . نحن الآن أحسن منهم ومن عشر بلاد مثل بلدهم !

ثم نظر إلى وقال فى ثورة :

— مضبوط ؟ !

فقلت على الفور :

– مضبوط !

ووجه هاشم لى نظرة شامتة من طرف عينه . . وقال فى تخابث :

– طبعا . . وعمدة بلدنا أحسن من عشرة عمد مثل عمدتهم !

ورد الشيخ علوان بلهجة جادة دون أن يفطن لتخابث هاشم :

– عمدتنا أحسن منه ألف مرة . . عمدتنا جعفرى أصيل من نسل الإمام على . . وعمدتهم جعفرى مزيف يتمسح فى الجعافرة ويزعم أنه منهم . . لكن على من ؟ . . الناس كلها تعرف !

ثم سألنى فجأة :

– ابن من أنت ياسبع ؟

فرد عليه هاشم :

– ابن طاهر ياسين . . من الحوالد (اسم قبيلى)

وابتسم الشيخ علوان وقال لى فى ود وقد رق صوته :

– حَبَابَكْ عَشَرَة (يعنى مرحبا بك عشر مرات)

فقلت له

– أهلا بك

ثم التفت إلى هاشم وقال له فى لهجة آمرة :

— قم ياولد ياهاشم قل لهم يعملوا قهوة فى بيتى لابن مشايخ العرب !

ثم أشار إلى وهو ينطق كلمة (ابن مشايخ العرب !)

فقال له هاشم فى رجاء :

— أنا نبهت على قهوة عندى . . أنت ضيفنا . . ولايصح

فمد الشيخ علوان سبابته وقال كالمهدد :

— اسمع الكلام ياولد !

ونادى هاشم على غلام صغير تصادف مروره . . وكلفه بالذهاب إلى بيت الشيخ علوان . . ثم عاد إلى مجلسه .

وأشار الشيخ علوان إلى وقال يخاطب هاشم :

— أنا لاأحب قبيلة فى بلدنا مثلما أحب الحوالد

وشعرت بسعادة غامرة . . فأنا أحب قبيلتى وأحب من يحبها وقال الشيخ علوان :

— أنا أحبهم من يوم (شكلة) المولد . . لولاهم لكان العار ركب بلدنا إلى يوم القيامة . وقفوا وحدهم فى (الشكلة) مثل الأسود . . الله الله عليهم !

ومع أن هذه ليست أول مرة أسمع فيها من يصف أبناء قبيلتى بالشجاعة . . إلا أننى كنت فى غاية النشوة وأنا أستمع إليه . .
وقال مكملا بعد أن تربع على السرير :

– كان ذلك أيام ماكنا نطالب بعمودية لبلدنا . . كنت أيامها فى مثل سنكما . . فوق العشرين بقليل . . ولما سمع عمدة السبيل بأننا نريد الانفصال عنه . . أراد أن يذلنا بين البلاد . . فانتهز فرصة قرب ليلة مولد الشيخ عمران . . وأرسل لنا من يقول (لا تحضروا إلى المولد . . وإن حضرتم فذنبكم على جنبكم !) . . وكان أهل بلدنا قد اشتروا الملابس الجديدة واستعدوا لهذه الليلة المباركة . . وتشاورت قبائل بلدنا فى الأمر . . بعضها قال نذهب إلى المولد وليكن ما يكون . . وبعضها قال نبعد عن الشر أحسن لأن أهل السبيل أضعاف عددنا . . ولو سلطهم علينا العمدة لأكلونا فى غمضة عين . . خصوصا وأننا سنكون فى بلدهم . . وظلت قبائل بلدنا تتشاور إلى ماقبل المولد بيوم . . دون أن تصل إلى نتيجة . . (ثم أشار إلى وقال) لكن قبيلة الحوالد لم تتشاور مع أحد . . حملت النبابيت برجالها ونسائها وأطفالها وذهبت إلى المولد . . وقالت لبقية قبائل بلدنا : (افعلوا مثلما فعلنا . . الرب واحد والعمر واحد) . . وفعلا . . تشجعت كل قبائل بلدنا وخرجت وراءهم . . ولما وصل الخبر إلى عمدة السبيل ركبه ألف جن . . وسلط علينا أهل بلده . . عددهم كبير أولاد الكلب ؛ . . هجموا علينا مثل كلاب جهنم . .

وهربت كل قبائل بلدنا . . لكن الحوالد وقفوا . . كلهم وقفوا . . كانوا يتوقعون (الشَكْلَة) وقد استعدوا لها . . تقهقروا فجعلوا حيثان النخل وراءهم . . وتصدوا للسبيل وكأنهم جسر من حديد . . كانت النبابيت التى ليس لها حصر تفرقع فوق نبابيتهم فيردون بأحسن منها . . انقسموا — كعادتهم — إلى فريقين . . فريق يدافع . . وفريق يهاجم . . صفهم مرسوم كأنهم عساكر الترك . . كل اثنين بجوار بعضهما متعاونان . . واحد يحمى نفسه ويحمى زميله بنبوته . . والثانى يهاجم . .

ثم سألنى فجأة :

— هل تعلمت القتال بالنبوت ؟

فقال له هاشم :

— هو أحسن واحد يلعب التحطيب بين أنداده

فقال الشيخ علوان وهو يهز رأسه :

— هذا معروف . . الحوالد يعلمون أولادهم القتال بالنبوت منـــذ الصغر . . هم رجال النبوت بحق . . ومن النادر أن يجرح أحدهم فى (شكلة) لبراعتهم فى استعمال النبوت . . ويوم شكلة المولد جرح منهم ثلاثة فقط . . مع أن الشكلة استمرت أكثر من ساعتين .

فسأله هاشم :

— وماذا حدث بعدها ؟

فقال الشيخ علوان وهو يضغط على عمامته الكبيرة :

— أهل بلدنا . . بعد أن وصلوا إلى البلد سمعوا فرقعة النبابيت فعرفوا أن الشكلة لم تنته . . وسارعوا إلى هناك وماهى إلا ساعة حتى حصل النصر !

ثم قال وهو يعتدل فى جلسته :

— لولا الخوالد . . اركبنا العار

ثم التفت إلى وقال فى حرارة :

— حبابك عشرة .

وصمت الشيخ علوان . . وتمنيت لو لم يصمت . . فقد كنت أشعر بالزهو طوال فترة حديثه . . ويبدو أن الصديق هاشما أحس بما يشبه الغيرة . . فقال للشيخ علوان فى لطف وكأنه يطالب بحقه فى المدح :

— أظن جدى . . الله يرحمه . . هو الذى نبه أهل بلدنا للعودة إلى القتال وفوجئنا بالشيخ علوان يقول له فى حدة :

— كلام فارغ . . جدك هرب فى أول الشكلة ! .

ووجدت صعوبة شديدة فى كبت ضحكتى . . فقد شعرت أنها ستجرح شعور هاشم . . الذى فوجئ بهذا الرد فقال موضحا :

— أنا لاأقصد الشكلة . . أنا أقصد أن أهل البلد لما هربوا . . ووصلوا إلى بلدنا . . ودخلوا بيوتهم . . جدى ركب فرسه ونادى فى الناس وقادهم إلى مواصلة القتال . . هذا ما أقصده ؛

فحدجه الشيخ علوان بنظرة نارية وقال له فى سخرية :

— هذه الإشاعة طلعها أبوك ! !

ثم استطرد بنفس اللهجة الساخرة :

— أنا معك أن جدك كان عمدة محترما . . لكنه — الله يرحمه — كان يخاف من القتال خوف البرد . . أول مايسمع فرقعة النبابيت يرتعش من أوله إلى آخره ويغلق عليه الباب ! !

وتفصد العرق من جبين هاشم وهو يبتسم فى عسر . . وتمكنت بعد جهد من السيطرة على نفسى لكيلا تفلت منى ضحكة . . وإن كانت أعماقى تقهقه لطريقة الشيخ علوان فى إبداء رأيه .

* * *

من بعيد ظهر شيخ البلد . . أو شيخ المنطقة التى يقع فيها (النجع) الذى تسكنه قبيلتى . . كان قادما من الناحية الشرقية . . نزل من على حماره وتركه لأحد الخفراء . . ثم اتجه إلى المضيفة الكبيرة لظنه أن

العمدة هناك . . لكن الخفير أشار إليه ناحيتنا ، فجاء إلينا مهرولا . . دخل علينا دون أن يلقى بالسلام . . دار فينا بعينين زائغتين ، وما أن وقع نظره على هاشم حتى صاح فيه :

— أين أبوك ؟

فرد هاشم فى احترام :

— فى البيت

فقال الشيخ فى لهفة :

— قل له يأتى . . أريده حالا

فوقف هاشم وقال له فى دهشة :

— خير ياحضرة الشيخ ؟

رد الشيخ وهو يدور حول نفسه كأنه يبحث عن شئ :

— قلت لك أريده حالا . . أين هو ؟

وخرج هاشم مهرولا . . وراح الشيخ يفرك يديه فى عصبيته . . ثم التفت إلينا . . وحدق فى وجهى وصرخ :

— أنت هنا ونجعكم مقلوب ؟

فهببت واقفا وأنا أتساءل :

— مقلوب ؟

فقال وهو يلوح بيديه :

— أهل السبيل ضربوا واحدا من قبيلتكم . . عامر بن سلمان القاسم .

وقفز إلى خيالى (عامر) . . ذلك الشاب الخجول الوديع الذى لم يتجاوز الثامنة عشرة . . فقلت للشيخ فى دهشة :

— لماذا ؟

قال وهو يهز كتفيه ويطل من الباب فى انتظار العمدة :

— أنا أعرف ؟ . . قابلوه فى السوق وضربوه ؟

— متى ؟

— ظهر اليوم

ثم دار حول نفسه ، فدار معه طرف (الشال) المنحدر من أعلى العمامة . . وقال فى عصبية وهو يتجه بنظره إلى الخارج :

— أين العمدة ؟ . . ما الذى أخره ؟

ثم التفت إلى وقال :

— سمعت أنهم كانوا أربعة . . و (عامر) كان وحده ؛ . . لكن . . أين العمدة ؟ . لم يتلكأ هكذا ؟ . . ألا يعرف أنه يجب تدارك الموقف قبل أن تقوم القيامة ؟ ؛

* * *

وخرجت من المضيفة . . فككت قيد (ركوبتى) وانطلقت إلى نجعنا — الذى يبعد ثلاثة كيلو مترات — ونسيت أن أنتظر الصديق (هاشم) لأستأذن منه فى الانصراف . . وفى الطريق هجست بى هواجس الفكر .

* * *

(٢)

هاقد جاءت اللحظة التى طالما حذرنى منها أبناء قبيلتى . . كلهم عارضوا فى زواجى من بلدة (السبيل) . . هم لم يعارضوا فى مصاهرة الشيخ صالح — والد بدوية — جارهم القديم فى (النجع) . . بل كانوا يقولون الشيخ صالح على العين والرأس . . ولكنه — على أى حال — من بلدة السبيل التى لاتهدأ بيننا وبينها الأمور . . ولو كان الشيخ صالح لايزال يسكن معنا فى النجع لوافقناك . . ولكنه نقل متجره — ومن ثم عائلته — من بلدنا . . أصبح متجره فى (البندر) ، لكن عائلته تقيم فى السبيل . . فنحن لانريد إحراجه ولا إحراج أنفسنا . . ها قد وقع المحظور وتعقدت الأمور . . غدا تثأر قبيلتى من السبيل وتتوقف الحياة تماما بين البلدين . . وربما إلى عدة سنوات . . لا أحد يستطيع أن ينتقل من قريتهم إلى قريتنا أو العكس . . يا لله . . من كان يصدق أن (كتب الكتاب) سيتم خلال هذا الأسبوع ؟

لكن مالى أنا ومال الزواج من بلدة السبيل ؟ . . أمن أجل أن أهل السبيل بصفة عامة أكثر تقدما منا ؟ . . أم لأن (بدوية) هى الفتاة الوحيدة — فى قريتنا — التى تذهب إلى المدرسة الثانوية فى البندر ؟ . . هى لم تذهب إلا لأنها من السبيل . . المستنيرة بالقياس

إلى بلدنا . . ولأن أباها الشيخ صالح من التجار الذين يختلطون بالكثيرين من الناس . . فهو أكثر فهما للأمور من أهل السبيل. أنفسهم . . لكن . . هل كنت سأعدم واحدة من بلدنا بدلا من هذه المتاعب التى عانيت منها كثيرا ، حتى إذا حسبت العذاب قد انتهى ، عاد من جديد وبقسوة ؟ . . تبا لهذا القلب الذى لا يعترف بالمنطق ولايعمل حسابا لأى احتمال . . . لقد قال — القلب — إما بدوية وإما لا . . وخضع العقل بكل منطقه لإرادة القلب . . لكن ما الذى أفدته من القلب ؟ . . هاقد تبددت الأحلام وأطل الواقع بكل مرارته . . رباه . . ألا يوجد ثمة أمل ؟ ألا يمكن أن تتسامح قبيلتى وتسأل عمن ضرب (عامر) وتقبل الصلح ؟ . . تتسامح ؟ . . قبيلتى أنا تتسامح ؟ . . هذا من رابع المستحيلات . . بل من عاشر . المستحيلات .

يا لله . . من كان يظن أن الأمور ستنتهى إلى هذه النهاية ؟ . . لكن . . أعتقد أن هناك أملا . . أجل . . هناك أمل . . الشيخ طه . . أكبر زعماء قبيلتنا سنا هو الأمل . . هو رجل السلام دائما . : كان فى يوم من الأيام سيد القبيلة وصاحب الكلمة الأولى والأخيرة فيها . . حقا إنه الآن فى الثمانين من عمره . . وقد عاقه الكبر عن السيطرة الكاملة على القبيلة وكبح جماحها . . لكنه لايزال مسموع الكلمة . . أجل . . مسموع الكلمة . . حتى الحاج منازع نفسه . . ذلك الرجل المتهور . . الغاضب دائما . . يصغى إليه فى كثير من

الأمور . . أجل . . هناك أمل . . يارب . . امنحنى القوة لأقنع أبناء قبيلتى بقبول الصلح . . من أجلى ومن أجل بدوية يارب . . لكن . . هل يقتنع أبناء قبيلتى بما يمكن أن أسوقه من حجج ؟ . . ياليت . . أنا فى نظرهم (ولد) . . لا أفقه فى أمور الدنيا شيئا . . شيوخ قبيلتى لهم منطق عجيب . . الذى يريد أن يقنعهم بشئ مايجب أن يكون ملما (بثقافة) خاصة تختلف عن (الثقافة) التى تعارف عليها البشر . . فأين لى بهذه الثقافة ؟ ؛ . . مهما يكن من أمر . . فالشيخ طه هو الأمل الأخير . . يارب . . امنحه القوة يارب.

* * *

تركت طريق النيل . . وصعدت إلى الطريق الأعلى . . فقد دار النيل ليتجه إلى الشمال بعد أن كان اتجاهه إلى جهة الشرق . . اصطدم بأحد الجبال العالية فغير اتجاهه ولمياهه زمجرة عنيفة تشبه احتجاج المغلوب على أمره . . وفى منتصف النيل ظهر مركب شراعى خذ له الهواء فى المنطقة التى غير فيها النيل اتجاهه فجرفه التيار إلى الوراء ، وصاحبه يستعمل مجدافه بلا جدوى . . ومن بعيد ظهر (نجعنا) ببيوته ذات الطابق الواحد . . وأشجار النخيل تحيط به من كل جانب ، فبدت بيوته بقبابها السمراء كالجزيرة وسط بحر من النخيل .

فى مدخل الدرب الكبير الذى يبدأ من المزارع التقيت بصديقى وابن قبيلتى — وزميلى فى كلية الآداب — (صابر) . . كان الموقف

كله مرتسما على وجهه الأسمر الجميل ذى التقاطيع الحبيبة إلى نفسى . . كان يقف فى انتظارى يراقب الطريق والذعر يطل من عينيه الواسعتين ، وفمه نصف مفتوح — كعادته — فى حالة الدهشة — وعمامته تهدلت — بلاشعور منه — وأطل منها شعره الأسود الغزير . . خيل إلى أنه ازداد نحافة وازداد طولا . . ما أن اقتربت منه حتى قال لى متسائلا فى صوت متهدج :

— سمعت !

قلت له وأنا أقف بجواره :

— سمعت !

ووضع صابر يده على رقبة الحمار ، وعبث بأصابعه فى عرفه الأبيض ، وفتح فمه ليتكلم ولكنه لم يقل شيئا . . نظر إلى بالفم النصف مفتوح ، ثم واصل عبثه بالعرف فى عصبية . . فسألته :

— لماذا ضربوه ؟

اتسعت عينا صابر وهو يقول :

— لا أدرى !

وحاولت أن أسأله عن (الرأى العام) فى القبيلة وهل هو المطالبة بالثأر أم هو الانتظار وقبول الصلح ، ولكننى أشفقت على نفسى . . خفت أن يصدمنى بكلمة (الثأر) فيضيع كل أمل فى خيالى . .

الخيال نعمة ونحن لا ندرى . . نهرب إليه كلما صدمنا الواقع بمرارته. لولا الخيال لما احتملت الحياة . . وقلت لصابر ونحن نشق الدرب الكبير الذى يخترق النجع :

— هل إصابته خطيرة ؟

قال دون أن يلتفت إلى :

— هناك جرح فى جبهته . . وضربة قاسية فى ذراعه . . لكنه متعب . . يبدو أنه قاومهم طويلا .

— ألم يعرفهم ؟

— لا . . فقط قال إنهم من . . السبيل ؟

نطق صابر كلمة (السبيل) بعد لحظة تردد . . كأنه يخشى أن يجرح شعورى . . ثم استطرد :

— الجماعة (يقصد القبيلة) لا أحد منهم يكلم أحدا .

— كيف ؟

— الجميع يجلسون فى صمت أمام بيت سليمان القاسم (والدعامر) الواحد فيهم يدخل البيت فيطل على عامر . . ثم يخرج ليجلس فى الساحة دون أن يكلم أحدا أو ينظر إلى أحد .

قلت ودقات قلبى تتلاحق :

— وما تفسير هذا فى رأيك ؟

هز كتفيه وقال :

— الله أعلم ؟

وسرنا فى صمت إلى أن وصلنا بيت عامر .

* * *

كان (عامر) مسجى على حشية فوق سرير من الحبال ، وقد غطى حتى صدره بملاءة بيضاء . . بينما رأسه قد انتزعت منه العمامة ولفت حوله عصابة بيضاء كبيرة ظهرت منها بقعة دم حمراء . . بينما حول السرير جلس أبوه وأخوه وعمه وامرأة قوية الشخصية من قبيلتنا فى حوالى الخمسين من عمرها اسمها (منصورة) .

ما أن ألقيت نظرة على عامر حتى أحسست بقلبى يعتصر لمنظره . . كان مغمض العينين ، وقد بدا عليه الهزال ، وتحول وجهه القمحى إلى صفرة الموت . . ضاعت تعبيرات الوداعة وحلت محلها تعبيرات تنم عن الألم . . لم أستطع أن أعرف هل هو فى إغفاءة طويلة . . أم أنه مغمى عليه . . تمنيت فى هذه اللحظة أن أنتقم ممن ضربه إنتقاما رهيبا . . وحانت منى التفاتة ففوجئت (بمنصورة) ترفع نحوى وجهها الأحمر السمين وتسلط على نظرة نارية . . وارتعت لنظرتها القاسية . . وفى الوقت نفسه عجزت عن تفسيرها . . هل هى تهيب بى أن أثأر لعامر بصفتى (أحسن) من يجيد لعبة التحطيب فى شبان القبيلة . . أم أنها

(تهمنى بأننى) مسئول بشكل ما عن ضرب عامر لأن (أصهارى) هم الذين ضربوه ؟

ضايقتنى نظرتها . . فسارعت بالخروج إلى الساحة الواسعة حيث يجلس أبناء القبيلة . . كانوا جميعا يجلسون فى صمت تام وفى حزن رهيب . . بعضهم جلس على أسرّة الحبال ، والبعض الآخر جلس على الأرض ، وأسند ظهره على أحد الحوائط على الرغم من وجود الأسرّة بكثرة .

كانت النظرات تتبادل بينهم فى صمت أبلغ من أى كلام . . كأنهم يقولون لبعضهم — من خلال تبادل النظرات — (ما هى الخطوة القادمة ؟) . . حتى الطبيعة شاركتهم الصمت . . خيل إلى أن خيمتنا الكبيرة (مضيفة القبيلة) تبادلهم النظرات فى صمت . . بل خيل إلى أن أعمدتها الحمراء العالية توجه نفس النظرات المتسائلة إلى سقفيتها الصيفية الواسعة وكأنها تقول لها : (كيف سيتصرف الخوالد)؟ . . بينما المبنى الشتوى الداخلى يهز رأسه فى أسف ، وفى نفس الوقت فى اطمئنان لأنه سيعرف كل شئ . . فالوقت شتاء واجتماعات القبيلة ستكون فيه . . أما شجرة (البلح) العريضة التى تغطى نصف الساحة بفروعها . . فقد استندت بأحد فروعها على أحد أعمدة السقيفة وكأنها تخشى على نفسها من السقوط لهول الصدمة . . بينما أشجار النخيل الكثيرة — فى الساحة والبيوت — قد تدلى جريدها فى استسلام دون أن تتحرك منه جريدة واحدة . . الهواء أيضا صامت !

اتجهنا — أنا وصابر — إلى ركن بعيد . . فجلسنا بجوار الشيخ «درويش» . . رجل من قبيلتنا فى حوالى الستين من عمره عرف بالوداعة والبساطة . . وقلت له فى همس شديد وأنا أجلس بجواره على الأرض وأستند بظهرى على سياج الخيمة الخارجى :

— لماذا ضربوا (عامر) ؟

تردد قليلا . . كأنه يخشى أن يسمعه أحد . . ثم قال ؟

— يقال أن بعض الشبان من بلدنا . . صفعوا (ولدا) من السبيل . . وبحث أهل السبيل عن أى أحد من بلدنا . . فالتقى بعضهم بعامر . . لكن الله أعلم بالحقيقة ؟

— وما هو رأى الجماعة (القبيلة) . . الثأر ؟

— لا أعلم ؟

— والحاج منازع . . هل تكلم ؟

— لا

— والشيخ طه ؟

— لم يتكلم هو أيضا

— وما رأيك أنت ؟

قلب يديه وقال فى استسلام :

— البلاوى لها الصبر !

ودعوت ربى فى سرى أن يمر الأمر بسلام

(٣)

قبيلتنا تنقسم إلى فرعين كبيرين : . وفرع ثالث صغير . . الفرعان الكبيران هما : فرع (القواسم) الذى ينتمى إليه الشاب المضروب (عامر) . . وينتمى إليه الحاج منازع أعنف زعماء قبيلتنا وأشدهم حماسا وأحدهم مزاجا . . وفرع (الغنادير) الذى أنتمى إليه أنا وزميلى صابر والشيخ درويش . . وينتمى إليه الشيخ طه أهدأ زعماء قبيلتنا وأكبرهم سنا وأرجحهم عقلا . . أما الفرع الثالث الصغير . . فرع (المنادى) فهو على قلته خطير الشأن . . ذلك لأنه يرجح الكفة التى ينضم إليها فى حالة اختلاف الفرعين الكبيرين على أمر من الأمور . . وزعيم هذا الفرع رجل قصير القامة جدا شديد الدهاء . . اسمه الشيخ حمد . . وهو أغنى شيوخ قبيلتنا ، إذ أنه يملك أكثر من ثلاثين فدانا وما يقرب من عشر بقرات . . وأبناء قبيلتنا — باستثناء فرعه — يلقبونه — وراء ظهره — باسم حمد العجل . . لرأسه الكبير الذى يشبه كثيرا رأس العجل . .

ومع أن لكل فرع من هذه الفروع الثلاثة زعماء كثيرين إلا أن الحاج منازع هو زعيم القواسم الفعلى . . والشيخ طه والشيخ حمد هما زعيما الفرعين الأخريين حقيقة .

وقال لى زميلى صابر ونحن نجلس مع أبناء القبيلة فى الساحةالواسعة ، وسيل الداخلين والخارجين من بيت عامر لا ينقطع :

— الخوف كله من القواسم .

وبلا شعور منى نظرت إلى الحاج منازع . . كان يجلس على سرير من الحبال — وحده — ووجهه الصارم قد ازداد صرامة بينما راحت عيناه الضيقتان الحادتان تدوران فى الجالسين فى حركة دائبة . . فقلت لصابر :

— لا أعتقد أن الخوف من القواسم . . بل من الحاج منازع فقط .

فقال لى وهو يضغط على عمامته الكبيرة ليدارى شعره الغزير :

— لا تصدق . . القواسم كلهم مجانين . . هم سبب كل المشاكل التى تعرضت لها القبيلة ؟

فقلت له فى همس شديد ·

— أنت تظلمهم

رد فى انفعال شديد :

— أبدا . . المسألة هى أن . .

فقاطعته محذرا لما رأيت انفعاله :

— اخفض صوتك . . الجميع ينظرون إلينا .

وبحركة لا شعورية جذب صابر طرف جلبابه الأبيض إلى ركبته ليدارى طرف بنطلون (البيجامة) وقال فى همس شديد :

— لو أنك أحصيت كل المعارك التى خاضتها قبيلتنا سواء على المستوى الفردى أو الجماعى لوجدتها كلها بسبب القواسم . . هم ناس يحبون القتال حبا فى القتال . الشر متأصل فى نفوسهم . . ألا ترى أنهم جميعا يتكلمون — حتى فى الأمور العادية — بغضب شديد وفى عصبية عجيبة ؟

ورجعت بذاكرتى إلى الوراء . . وتبين لى صدق قوله . . فقلت :

— ربما المصادفات لها دخل فى الموضوع .

فقال بحرارة :

— أبدا . . هم هكذا . . ناس يشعرون بمركب نقص يعوضونه فى التحرش بالآخرين . . هم أفقر أفرع قبيلتنا . . وأعنفها . . رد فعل . . ألا تصدق ؟

ورحت أصغى إليه وأنا أتفرس فى ملامح وجهه التى قيل إنها صورة طبق الأصل لملامح وجهى . . اولا أننى أكثر سمرة منه . . واستطرد صابر لما رأى إهتمامى

— هل رأيت فى حياتك الحاج منازع يبتسم ؟ . . حقا هو الوحيد فى القواسم الذى يملك عشرين فدانا . . ولكن البيئة تغلب . .

فالغالبية العظمى من القواسم لا يملك الفرد منهم أكثر من بضعة قراريط .. باستثناء عدة أفراد كل منهم يملك عدة أفدنة لا تزيد على عدد أصابع اليد الواحدة .. هل رأيته فى حياتك يبتسم ؟ .. هل رأيت أحدا من القواسم يكلمك بصوت خافت ؟ .. هل سمعت عن امرأة فى الدنيا تحمل النبوت وتقاتل به الرجال وتصرعهم أحيانا كما تفعل (منصورة) ؟ ..

ثم تنبه إلى نفسه والتفت إلى الشيخ درويش وقال له وكأنه يعتذر :

— لا أدرى .. ما الذى جعل الشيخ درويش الرجل الطيب .. يتزوج من (منصورة) ؟

وهز الشيخ درويش رأسه وقال فى أسى :

— البلاوى لها الصبر ؟

وابتسم صابر .. وأدار رأسه ليستأنف حديثه معى .. ولفت نظرى أنه ينظر باهتمام إلى مكان ما من الساحة .. ونظرت إلى حيث ينظر .. فرأيت الحاج منازع بقامته الطويلة النحيلة .. يقف وسط الساحة ، ووجهه النحاسى الصارم يلمع تحت أشعة شمس الغروب .. نظر إلى المكان الذى يجلس فيه الشيخ طه ورفع يده بكمها العريض وقال فى لهجة خشنة :

— شيخ طه .. من فضلك

قال ذلك . . وسار يخب فى زعبوطه الواسع ، حتى وقف بعيدا تحت نخلة صغيرة . . وهب الشيخ طه من مكانه وتجاعيد الثمانين عاما تملأ وجهه الأسمر — شديد السمرة — الذى يتوسطه أنف عريض ، ولوجهه براءة الأطفال . . ذهب إليه وعكازته تتقدمه يدب فى نشاط عجيب لا يتناسب مع إنحناءة ظهره . . ووقف بجواره وراحا يتهامسان لفترة طويلة وأنظار القبيلة كلها متجهة إليهما وبعد قليل صاح الحاج منازع من مكانه بنفس اللهجة الخشنة :

— شيخ حمد

وقام الشيخ حمد (العجل) بقامته القصيرة جداً . . وعباءته العريضة تنسدل وراء ظهره ، يسير فى خطوات متمهلة كأنه أحد الأمراء . . وعندما وقف يتهامس معهما بدا لى المنظر غريباً لطول الحاج منازع المسرف وقصر قامة الشيخ حمد الشديد .

تهامس الرجال الثلاثة وقتاً طويلا . . وبعدها توالت نداءات الحاج منازع على بقية شيوخ قبيلتنا وأهل الرأى فيها . . وذهب الكثيرون . . وكان من بينهم الشيخ موسى والد الزميل صابر . . وأبى بملامحه الوديعة وسبحته التى لا تفارق يده . . كما ذهب سلمان القاسم والد (عامر) . . وطالت وقفتهم . . وكان الحاج منازع يتكلم خلالها بفمه ويديه وعينيه وأنفه الحاد . .

وقال لى الشيخ درويش وهو ينظر إليهم :

— اطمئن . . المسألة فيها خير !

وسألته فى لهفة الغريق الذى يبحث عن قشة :

— كيف ؟

قال وعيناه الزرقاوان تلمعان فى وجهه الأبيض الذى حولته شمس أسوان الى اللون البرونزى :

— طالت وقفتهم .. معنى هذا أن الحاج منازع يريد —كعادته— أن يأخذ الثأر ويشعل النار .. وبقية المشايخ لا يقبلون !
ثم صمت قليلا .. وقال :

— لهم حق والله .. المسألة لا تستحق المشاكل .. غداً يأتى وفد من أهل السبيل يعتذر عما حدث وينتهى الأمر .. ولا أظن الشيخ سلمان (والد عامر) يعارض فى هذا فهو رجل مسالم ..

ورفع قلبى يديه الى السماء يشكر الرحيم بالعباد

* * *

ووصل العمدة . .

دخل علينا (النجع) فى ركب مهيب .. ثلاثة من مشايخ البلد عن يمينه .. وثلاثة من أعيان قبيلته عن يساره .. وبضعة رجال من علية القوم وراءه .. وجميعهم يمتطون (الجحوش) الغالية الثمن ذات الألجمة والأعناق المرفوعة كأنها الخيل المدربة على القتال .. ووقف كل من بالساحة بمجرد ظهور العمدة .. وهرول الشبان الصغار فأمسك كل

منهم بلجام أحد الجحوش استعداداً لربطه .. ونزل العمدة ومن معه والتف الجميع حولهم يحيونهم فى احترام ويسلمون عليهم .. وكان هاشم — ابن العمدة — والشيخ علوان ضمنهم .

وقال لى هاشم — دون أن يلحظنا أحد — وهو يضغط على يدى ويبتسم فى إشفاق :

— لا تحزن ياحسين .. سيمر الأمر بسلام إن شاء الله

وتمنيت لو أن دموعى تطاوعنى فى هذه اللحظة

وتقدم العمدة — بعد أن فرغ من السلام — وشاله الصوفى الأبيض قد التف نصفه فوق عمامته الكبيرة ، بينما تدلى نصفه الآخر فوق العباءة وراء ظهره — تقدم ومن معه فدخل بيت عامر يحف به الكثيرون من أبناء قبيلتنا وعلى رأسهم الحاج منازع والشيخ طه .. ودخلت معهم .

وقف العمدة بجوار السرير الذى يرقد عليه عامر — وكان قد فتح عينيه فى ضعف — وقال يسأله :

— من ضربك ياعامر ؟

ولم يرد عامر .. رد مكانه الحاج منازع .. قال وهو يعقد مابين حاجبيه :

— لم يضربه أحد !

فقال العمدة فى هدوء وهو ينحنى على عامر ويتحسس جبهته فى رفق :

— كيف ؟ .. ألم يضربه أهل السبيل ؟

فرد الحاج فى سرعة :

— أبداً .. نطحته البقرة .. بقرته الحمراء !

فاعتدل العمدة فى وقفته وقال يخاطب الحاج منازع :

— على كل حال أنا بلغت المركز .. قلت أن أهل السبيل هم الذين ضربوه .

وظهر الغضب الشديد على وجه الحاج منازع فقال فى عصبية :

— بلِّغ !

وشعر العمدة بجفاف حديث الحاج .. فذوى مابين حاجبيه ، لكنه قال فى نبرات طبيعية :

— أنا قلت الأصول أحسن !

فرد الحاج فى سخرية شديدة :

— وأنا أيضاً أقول الأصول أحسن !

وتلفت العمدة حوله كأنه يستنجد بمن يساعده ، ولما رأى الصمت يلف الجميع قال وكأنه يبرر موقفه :

— إذا تدخلت الحكومة .. أفضل من المشاكل بين البلاد

فرد الحاج متسائلا بنبرة غاضبة وأنفه الحاد يتحرك مع عضلات وجهه :

— وما الذى ستفعله الحكومة وهى لا تعرف من الضارب ؟

فقال العمدة وهو يقلب يديه وقد بدا عليه الضيق :

— وما الذى ستفعله أنت . . وأنت تجهل الضارب ؟

فلوح الحاج بقبضته فى الهواء وقال بصوت عال كالمهدد :

— غداً .. تسمع !

وأطبق الصمت .. راحت الوجوه كلها تتطلع الى العمدة تارة . . والى الحاج منازع تارة أخرى بينما وقف العمدة على جانب السرير الأيمن .. ووقف الحاج منازع قبالته على الجانب الأيسر .. ونظرات كل منهما تخترق الآخر وكأنهما يستعدان للمبارزة !

وتحرك الشيخ طه .. ابتسم فى براءة وابتسمت معه تجاعيد الثمانين عاماً .. مدّ عكازته إلى الأمام وقال للعمدة وكأنه يطيب خاطره :

— على كا حال نحن عندنا اجتماع الليلة ياعمدة .. وان شاء الله يحصل كل خير

فرد العمدة وهو يستدير ليخرج من البيت :

— بوجودك أنت ياشيخ طه .. سيحصل الخير

وخرج العمدة ومن معه .. وقال له الشيخ طه على استحياء :

ـ انتظر القهوة ياعمدة

فرد هذا وهو يمتطى صهوة حماره القوى :

ـ ليس وقته . . شكراً

وعندما بدأ ركبهم يتحرك .. سمعت الشيخ علوان يهمس للحاج منازع بقوله :

ـ لا تصدق كلام العمدة .. هو لم يبلغ المركز .. لا تتهاونوا فى ثأركم من أولاد الكلب ! !

وابتسم الحاج منازع .. واشتعلت النيران فى قلبى .

* * *

(٤)

أشعلت (الكلوبات) فى الخيمة — استعدادا لاجتماع القبيلة — بعد صلاة العشاء مباشرة . . والغلمان الصغار أحضروا المكانس المصنوعة من (سباط) النخل وكنسوا (بروش الحَلْف) السميكة التى تغطى أرضية الحجرة الداخلية المستطيلة — الواسعة جدا — ثم فتحوا حجرة (الفرش) الصغيرة فأخرجوا منها السجاد وغطوا بها (البروش) ووضعوا المساند الكبيرة بجانب بعضها لصق الجدران الأربعة . . ووقفوا تحت إشراف شاب فى الثلاثين — ينتظرون أبناء القبيلة ليكونوا فى خدمتهم عند توزيع (أدوار) القهوة . .

وكنت أول الداخلين أنتظر أبناء القبيلة — أو على الأصح أنتظر تقرير مصيرى بما يقرره اجتماعهم .

وقفت فى مدخل الخيمة أوجه نظرات مذهولة إلى شجرة (اللبخ) التى تتوسط الساحة الكبيرة . . هنا . . فى هذا المكان . . وتحت هذه الشجرة بالذات . . خفق قلبى لأول مرة .

كان ذلك يوم أن جاء محمود الرواجحى — أشهر لاعب بالعصا فى بلدنا — ومعه عدة شبان من قبيلته لإقامة مباراة ودية فى لعب العصا مع شبان قبيلتنا .

وللعب العصا فى بلدنا — وفى الصعيد بعامة — شأن وأى شأن . . فهى الرياضة المحببة — بعد ركوب الخيل — وللاعبيها نظرة خاصة واحترام كبير . . وقد عشقت هذه اللعبة منذ نعومة أظفارى وعرفت (أبوابها) وأسرارها وخدعها وكل ما يمت إليها بصلة . . ومع الأيام أصبحت أحسن من يلعبها بين شبان قبيلتنا . . وفى ذلك اليوم الذى جاء فيه محمود الرواجحى وزملاؤه احتشدت كل قبيلتنا فى حلقات كبيرة فى الساحة ، فازدحمت بهم على اتساعها . . واعتلى الغلمان الصغار أشجار النخيل المنتشرة حول الساحة ، وصعد بعضهم فوق سقف الخيمة وسياجها وتسلق البعض الآخر شجرة اللبخ ليتمكنوا من مشاهدة اللعب بعيدا عن زحمة الكبار . . وتجمعت نساء وفتيات النجع فى البيوت التى تحيط بالساحة وبرزت رءوسهن وعليها شيلان القطيفة الصفراء والحمراء والسوداء من أعلى الحوائط والنوافذ والكوات الصغيرة وقلوبهن تخفق متمنية النصر لفريقنا .

وبدأ اللعب . . ونزل إلى الحلقة شاب من عندنا وشاب من عندهم فإذا هزم أحدهما حل آخر محله . . وهكذا . . وبناء على اتفاق الجميع أُخّر محمود الرواجحى لنهاية اللعب وأخرت أنا للتصدى له . . فكنت —بلا مبالغة— معقد آمال القبيلة فى ذلك اليوم . . أو كما قال لى الشيخ درويش يومها : (أصبحت كبير القبيلة اليوم يا ولد . . مع أنك لم تخرج من البيضة بعد !) .

وأنا إنسان خجول بطبعى . . لكننى عندما أمسك بعصا التحطيب الرشيقة أتحول إلى شخص آخر تمـاما . . كأننى — كما قال لى صديقى صابر — الطير فى سمائه أو الحوت فى بحره . . وفى بداية حياتى الجامعية قلت لأحد أساتذتى عن حبى لهذه اللعبة . . وسررت كثيرا عندما قال لى أنها أقدم لعبة رياضية عرفتها مصر . . وشجعنى عليها وقال لى إننى أرى فى لاعبيها رجولة وسموا .

وفى ذلك اليوم وقفت أتفرج على طريقة أبناء القبيلة المنافسة فى اللعب لأستشف منها الطريقة التى يحتمل أن يلعب بها كبيرهم محمود الرواجحى .

وحانت منى التفاتة إلى نافذة صغيرة تعلو أحد البيوت المطلة من الساحة . . ووقع نظرى على وجه (بدوية) الحمرى وقد التف حوله (شال) من القطيفة الحمراء . . فبدا كالقمر فى تمـامه يحيط به بعض السحاب . . ودق قلبى بعنف . . فقد كانت تنظر إلى وتبتسم . . كأنها تقول لى : (لاتخذ لنا فى هذا اليوم) . . ودقت الآلات الموسيقية النحاسية العنيفة التى فى داخلى . . إذ لم أصدق عينى . . بدوية . . تلك البنت المتكبرة . . المغرورة . . التى طالما تمنيت أن تكلمنى . . أو تنظر إلى . . مجرد نظرة . . تنظر إلى الآن وتبتسم ؟ . . خيل إلى أننى واهم . . فحولت بصرى بعيدا لأتابع اللعب . . لكننى ما لبثت أن أعدته إلى وجهها مرة أخرى . . فألفيت الشفتين الممتلئتين اللتين خلقتا للأثارة لازالتا تبتسمان لى . . ودارت الدنيا بى . . ولم أكن أعرف أن

(بدوية) تدير العقول إلى هذا الحد عندما تبتسم . . إذ لم أكن أعرف أن لها مثل هاتين الغمازتين . . فهذه أول مرة أراها فيها تبتسم . . وطالت وقفتى . . وخيل إلى أن النظرة الطويلة الصادرة من العينين الواسعتين الجميلتين تتسرب داخل صدرى وتمسك بقلبى فتقلبه وتحركه وتدغدغه — بعد أن تغسله — وتعيده إلى مكانه ! . .

وجاء دورى فى اللعب . . وأمسكت بالعصا . . ونزلت إلى الحلقة . . وحبست الأنفاس . . ولم أكن ألعب —. . كنت أعزف . . ولم أكن أدور حول منافسى . . كنت أرقص . . أجل . . كنت أرقص . . حتى العمامة لم أنتبه إليها عندما سقطت — بطاقيتها الملونة — من فوق رأسى . . ولم أجد محمود الرواجحى عملاقا كما كنت أتخيله . . وجدته طفلا . . ولم أكن ألعب معه . كنت ألعب به . . ومن ابتسامات أبناء القبيلة التى انتشرت على الوجوه عرفت أننى ألعب به فعلا . . فأبناء القبيلة — فى هذه الحالات — يبتسمون فقط . . ولا يشجعون لكيلا يخدشوا شعور (الضيوف) !

كانت النظرة المنطلقة من العينين الجميلتين شحنة هائلة أنهت (المبارزة) فى وقت قصير لم يتوقعه أحد . . وانسحب محمود الرواجحى من الحلقة وهو يبتسم فى خجل . . وأبناء القبيلة يرحبون به — كنوع من المجاملة أو تطييب الخاطر — كما جرت العادة . .

إلا أن (منصورة) — تلك المرأة القوية الشخصية . . وكانت تقف مع الرجال ! ! — أطلقت زغرودة مدوية أفسدت بها كل (مجاملات) القبيلة !

ورأيت (بدوية) تقهقه فى سعادة وهى تسمع زغرودة (منصورة) تساعد الزغرودة المنطلقة من عينيها السوداوين الساحرتين .

وقهقه قلبى . . وبكى فى آن واحد !

* * *

فى اليوم التالى للمبارزة . . رأيت (بدوية) فى بيتنا . . كانت تحادث أختى (فاطمة) — وهى صديقتها — تحت النخلة التى تتوسط بيتنا . . ويبدو أنها كانت تستعد للانصراف . . فقد كانت تعطينى ظهرها عند دخولى . . وقد لمع جلبابها الحريرى الأصفر تحت الثوب الأسود الشفاف . . وانسدل الشال القطيفة الأحمر على ظهرها فأبرز بضغطه بعض كنوز الجسد الرشيق . . وتعثرت فى خطوى وأنا أدخل . . ارتبكت . . وابتسمت لى فاطمة . . والتفتت بدوية وراءها . . والتقت العيون فى نظرة سريعة خاطفة . . التقت ! . . لا . . تعانقت ! . . وأنهت بدوية حديثها بسرعة مع فاطمة . . واستدارت لتخرج . . ومرقت بجوارى دون أن تنظر إلى أو أنظر إليها . . ولكن خيل إلى أننى قلت لها فى صمت (أنا عارف) . . وخيل إلى أنها ردت (وأنا عارفه !)

ومكثت أكثر من ساعة وأنا أبحث عن (الحجة) التى أتحدث بها مع فاطمة — التى تصغرنى بخمس سنوات — عن (بدوية) . . وكنت أريد أن أؤكد لقلبى أن (بدوية) التى طالما تمنى أن يعيش بقربها . . مجرد القرب . . تهتم به . .

أخيرا قلت لفاطمة وأنا أتصنع عدم الاهتمام :

— صاحبتك بدوية عيبها الوحيد أنها متكبرة !

فردت فاطمة وهى تبتسم :

— وماله ! ؟ . . أليست جميلة ! ؟ . . الجميلة من حقها أن تتكبر ! !

قالتها فاطمة وكأنها تعطى لنفسها هذا الحق أيضا !

فقلت لها :

— هى جميلة . . لاشك . . والنجع به بنات جميلات . . و لكنهن لسن كلهن متكبرات .

فقالت فاطمة وهى تضحك :

— اطمئن . . هى أيضا تقول عليك إنك متكبر !

ودق قلبى بعنف . . إذن المسألة قديمة . . أنا فى (بالها) أيضا كما هى فى (بالى).

فقلت لفاطمة فى لهفة وأنا أتلعثم :

— متى قالت ذلك يا فاطمة . . متى ؟ . . وما المناسبة ؟ . . وكيف ؟ . . ولماذا ؟ . . وماذا قالت أيضا ؟

وضحكت فاطمة وقد أحست بما يعتمل فى داخلى وقالت مداعبة :

— حاسب . . حاسب . . على مهلك ؟

ثم أشارت إلى (الزير) وقالت فى سخرية :

— اشرب . . أحسن تشرق ! !

وأخجلتنى سخريتها . . فقلت لها فى حدة وأنا أتصنع الجد وأمارس حق سيادة الأولاد على البنات فى مجتمعنا :

— امش يا بنت لعملك . . قليلة الأدب ! !

وحدجتنى بنظرة نارية وهى (تكشر) :

— من فينا قليل الأدب الآن ؟ !

ثم تمتمت وهى تتركنى وتنصرف :

— بلاوى !

وندمت لأننى أغضبت فاطمة ولا سبيل الآن إلى سؤالها عن (بدوية) . . ولكن كلماتها عن بدوية كانت كافية لأن تدير رأسى إلى وقت طويل .

وانتقلت (بدوية) مع أسرتها إلى (السبيل) . . بلدتهم الأصلية..
والتقيت بها فى الطريق الزراعى الذى يشق حقول القصب ويربط
(البندر) بالسبيل . . كانت ترتدى ثياب المدرسة — التى تغيرها
بالزىّ (الوطنى) بمجرد عودتها — فتبدو فيها مختلفة تماما . . كأنها
تخلع معها جمالها لترتدى جمالا آخر يحير الإنسان فى أى الجمالين أروع..
هى فى الزى المدرسى كالفتاة العصرية التى لم تر القرية ولم تعرفها . .
شعرها الكستنائى يعلن عن نفسه ويتباهى بها . . وقوامها الرشيق
يظهر أحسن ما عنده ليدير العقول . . بينما فى (الزى الوطنى) تبدو
وكأنها إحدى أميرات الأساطير . . يلفها ذلك الغموض المثير ويخيل
لمن يراها أن ملامح وجهها الجميلة تختلف عن تلك الملامح الجميلة
بالملابس العصرية . . خيل إلىّ عندما رأيتها لأول مرة بالزى العصرى
أن والدها لم يترك قريتنا بسبب نقل تجارته إلى (البندر) . . بل
بسبب هذا الزى الذى قد يثير غضب قبائل قريتنا . . بعكس
(السبيل) التى سبقت قريتنا بمراحل فى مجالات التعليم .

سرنا معا فى طريقنا إلى السبيل — وقد ادعيت أننى ذاهب إليها لزيارة
صديق — وتكلمنا معا لأول مرة . . ولم أكن أتوقع أن (بدوية)
كانت تنتظرنى بكل هذه اللهفة . . هى لم تقل ذلك صراحة . .
ولم تصرح به . . ولكن من خلال أحاديثنا البسيطة . . واختلاج
صوتها أحيانا . . كان قلبى ينظر ويرى . . وقلوب الأصفياء لها
عيون — كما يقول الشاعر — ولم أقل لها — طوال لقاءاتنا فيما بعد فى هذا

الطريق – إننى (أحبك) . . كما لم تقل لى هى أبدا هذه الكلمة . . لا نستطيع . . لا أنا ولا هى ! . . هذه الكلمة محرمة فى مجتمعنا . . لا . . ليست محرمة . . هى مكروهة . . ممجوجة من ذوق قومنا . . تخدش الشعور هى !

أجل . . تخدش الشعور . . فهذه الكلمة – فى وجدان مجتمعنا – ترادف (العشق) . . ولكلمة العشق وقع منفر . . هى ترادف (التهتك) . . وويل لمن وصم بالتهتك فى مجتمع يفخر بالعفة ويعتز بالأنساب حتى الأصول الأولى الوافدة من جزيرة العرب . . . ويقرن (العفة) بالنسب حتى إذا فقدها إنسان فكأنه فقد معها النسب . . . كل رأس ماله !

كانت الأحاديث تدور بيننا طوال رحلة الطريق مثل :

– فاكر لما كنت أقابلك زمان ولا أكلمك ؟

– فاكرة ؟

– كنت أيامها أكرهك ؟

– وأنا كنت أكرهك (تضحك !)

– كنت أقول هذه البنت تتباهى بعينيها ولا يعجبها أحد !

– وأنا كنت أقول هذا الولد يغلب الأولاد فى التحطيب وعامل نفسه (كبير) !

— كنت كلما قابلتك أتمنى لو أضربك !

— وأنا كلما قابلتك أتمنى لو أضربك (تضحك !)

— لكنى كنت أقول يارب تكلمنى !

— أنا . . لا (تضحك)

— فاكرة يوم عرس صاحبتك (أمينة) لما كنت (وزيرتها) !

— فاكره ؟

— قابلتك يومها خارجة من بيتكم لابسة ثياب (الوزيرة) لتقعدى بجوارها لغاية قبل (الدخلة)

— (تضحك فقط) !

— كانت (ودعة الذهب) نازلة على قورتك تلمع لمعان القمر .

— وأنت يومها كنت تلعب العصا مع حمدى الخطارى وشعر رأسك طالع من تحت العمامة المزهرة !

— أنا يومها قلت الوزيرة أحلى من العروسة ألف مرة !

— (تضحك) وأنا يومها قلت أنك أحسن من مهدى الخطارى ألف مرة !

— كنت ماشية خطوتين قدام . . وخطوة للخلف . . عاملة نفسك فرس العمدة العايقة !

— وأنت كنت ماسك الشمروخ الأحمر عامل نفسك (فارس ؟)

— أول ماشفتك قلت يارب تموت !

— وأنا أول ما شفتك قلت يا رب يغلبوه !

— أنت تكرهيني من زمان يا بدوية !

— وأنت تكرهني من زمان يا . . . . . ! ؟

وتضحك دون أن تنطق اسمي . . كأن نطق اسم الحبيب من المحرمات ؟

وكنا نلتقي يوميا تقريبا في هذا الطريق في الأيام التي أقضيها بالبلد . . حتى أيام (أجازاتها) كانت تذهب إلى (البندر) عند أبيها لتشترى (المجلات) كما تقول . . وقد ساعدنا أن الطريق الذى كنا نسير لا يسير فيه أحد إلا نادرا . . فهناك طرق كثيرة تربط بلدتهم بالبندر . . وكان هذا الطريق أكثرها وحشة . . لا نرى فيه إلا بعض العمال الزراعيين الموسميين الذين يجلبون من مناطق بعيدة من الصعيد . . لا يعرفون أحدا ولا يعرفهم أحد . . وفاتحت أبى فى الزواج من (بدوية) . . ووافق أبى . . لكنه قال لى لو كان الشيخ صالح — والد بدوية — يقيم معنا . . لكان أفضل . . أما وأنه يقيم الآن ببلدة السبيل — التى لا تهدأ الأمور بينها وبين بلدنا — فالأمر جد خطير . . . لاسيما وأن تقاليدنا تحتم أن تكون (الدخلة) فى بيت آل العروسة . . على أن تقيم العروسة عند أهلها — ومعها العريس — لوقت لا يقل عن سنتين . . قبل أن نحضرها إلى بيت أهله . . لكننى قلت لأبى (أما هى . . وإما لا !)

وأبى رجل طيب . . ناقشنى فى هدوء . . قال لى أن الشيخ صالح صديقه . . ويتمنى أن يصاهره . . لكن قبيلتنا كلها لن توافق . . كما أن الشيخ صالح نفسه يتمنى مصاهرتنا . . لكنه خاف من المستقبل إذا حدث أمر ما بين البلدتين . . كما أن قبيلته نفسها — وهى قبيلة العمدة فى السبيل — لن توافق على هذا الزواج . . لكننى لم أقتنع بكلمة واحدة من كلام أبى . . حتى أمى رفضت أن أناقشها فى هذا الأمر . . أخيرا قال لى أبى إذا استطعت أن تقنع قبيلتنا . . أنا موافق . . وفعلا . . لم أترك أحدا من قبيلتنا إلا وأقنعته . . جميعهم وافقوا . . بما فيهم الحاج منازع نفسه . . والحقيقة أنهم لم يوافقوا عن اقتناع . . بل وافقوا لأنهم ضاقوا بى . . فقد كنت أستوقف الواحد منهم فى الطريق وأظل أناقشه ويناقشنى إلى أن يتعب من المناقشة والإلحاح فيوافق — على الرغم منه — ليتخلص من إلحاحى . . لست أدرى من أين جاءتنى كل هذه القوة فى تلك الأيام — التى مر عليها أكثر من سنة الآن — انقلبت من إنسان خجول قليل الكلام إلى إنسان مشاكس لا يكف عن الكلام سواء فى الليل أو فى النهار . . كنت أخجل من كبار السن فى القبيلة وأخاطبهم باحترام فأصبحت — أيامها — أقتحم عليهم بيوتهم وأوقف بعضهم فى الطريق . . بل إننى أذكر أن الشيخ طه بعد أن ظل يجادلنى فى بيته أكثر من ثلاث ساعات حمل عكازته بيد . . وأمسك يدى باليد الأخرى . . وضرب على أبى بابه فى منتصف الليل وقال له :

(أما أن تزوج هذا الولد من السبيل . . وأما أن تبعث به إلى السراية الصفراء !)

حتى الحاج منازع . . الذى لا يجرؤ أحد على مخاطبته . . أوقفته فى الطريق العام . . ورحت أكلمه بفمى ويدى وعينى وكل ذرة فى كيانى . . وظل يسمع لى أكثر من ساعة فى صبر عجيب .

وقلت له فى معرض كلامى لا بد من أن أتزوج منها . هى عندى فى كفة وكل الدنيا فى كفة أخرى . . وارتاع لكلمتى . . فسألنى : (كل الدنيا يا ولد ؟ . . بما فى ذلك قبيلتنا ؟ !) فقلت له فى حرارة وأنا فى قمة حماسى : (بما فى ذلك قبيلتنا ؟ !) ولم أشعر إلا وخيزرانته الرفيعة تنهال علىّ . . وهربت من أمامه وصيحاته الغاضبة تلاحقنى . . لكنه فى الليل ذهب إلى أبى وقال له : (زوج هذا الولد بسرعة . . لأنه بدأ يتعلم قلة الأدب ! ؟)

الوحيد الذى أيدنى بلا مناقشة — بعد الصديق صابر — هو الشيخ درويش . . قال لى أنا سأساعدك . . بنات السبيل جميلات وأنا ضقت (بمنصورة) . . تزوج من هناك — يا ولد — لكى تفتح لى الباب لأتزوج (على منصورة) أنا الآخر ! !

ووجد أبى نفسه محاصرا . . فذهب على رأس وفد من قبيلتنا إلى السبيل . . وتم الاتفاق بينهم وبين الشيخ صالح — وبعض أفراد

قبيلته — على أن يكون الزواج بعد أن أنهى دراستى . . وتنهى (بدوية) دراستها الثانوية — بعد أن تعهدوا له أن قبيلتنا ستقف على الحياد إذا ما حدثت أى مشكلة بين بلدتنا وبلدة السبيل فى المستقبل القريب ! !

لكن — ووا أسفاه — ها هى الرياح قد أتت بما لا تشتهى السفن . . وها هو (المضروب) من قبيلتنا بالذات . . وهأنذا أنتظر اجتماع القبيلة لتقرير مصيرى .

* * *

(٥)

توالى دخول أفراد قبيلتنا إلى الخيمة . . فرادى وجماعات . . وجاء صابر . . فدخلنا معا . . وبحثنا عن الركن الذى يجلس فيه الشيخ درويش وجلسنا بجواره . . ودار الغلمان الصغار بالقهوة على الجميع . . ولم يتأخر أحد لا من الشيوخ ولا من الشبان . . ووقف الحاج منازع بقامته التى تقارب المترين . . وقال بعد أن تنحنح :

— يا عرب . . زمان . . أيام أن كانت بلدنا تابعة لعمودية السبيل . . وفى عهد الأجداد . . عندما كان الترك يحكمون مصر . . كانت قبيلتنا هى القبيلة الوحيدة . . التى لا يجرؤ العمدة — عمدة السبيل — أن يبعث بأحد أفرادها إلى (السلطة) أو إلى (العسكرية) . . لا محبة فينا . . ولكن خوفا من سطوتنا . . وعندما كان عساكر الترك يمرون على نجعنا ويسألونه عنا . . كان يقول لهم هذه قبيلة من قبائل الصحراء . . لا تمكث هنا كثيرا . . كان الناس جميعا يعرفون قدرنا . . ذلك لأننا كنا نرد الصاع صاعين لكل من تسول له نفسه الاعتداء علينا . . فهل يرضيكم الآن أن يضرب واحد منا ونسكت ؟ . . هل يرضيكم ؟ . . إن كان يرضيكم قولوا لى . . لنذهب جميعا إلى حقولنا !

وسكت الحاج منازع . . وسكت جميع من فى الخيمة . . وقال لى صابر فى همس :

— لو قيل لى — أنا الجامعى — أقرع هذه الحجة بحجة مثلها لما استطعت . . يظهر أن القبيلة ستوافق الحاج منازع على رأيه !

وأحسست بقلبى يتفتت . . وقال الشيخ درويش لصابر فى همس شديد :

— لكننى أنا لا أوافق على رأى الحاج منازع !

فقال له صابر فى سخرية

— وما دمت لا توافق . . فلماذا لا تقف وتقول له ذلك ؟

فتقوقع الشيخ درويش على نفسه وقال فى انزعاج :

— أنا ؟ . . هل تريده أن يشتمنى ؟ ! !

ووقف الشيخ طه . . واتجهت إليه الأنظار . . فاستند إلى عكازته وقال فى صوت قوى لا أثر فيه لرعشة الكبر :

— لا . . هذا لا يرضينا . . ولكن الأمر مختلف فى هذه اللحظة فالشبان الذين ضربوا ابننا . . لم يقصدوه لذاته . . هم ضربوه لأنه من بلدة (الشرقية) . . هم لا يعرفون أنه من قبيلة (الحوالد) . . لذلك فالمشكلة هنا بين (بلدين) وليست بين (قبيلتين) . . أنا من رأيى أن ننتظر الصلح . . ونقبل الاعتذار .

وسكت الشيخ طه . . وتجدد الأمل فى نفسى . . وزمجر الحاج منازع فى غضب :

— كل قبائل بلدنا سمعت أن واحدا من الحوالد ضُرب . . فكيف سنواجههم إذا لم نرد الضربة ؟

وتهيأ الشيخ طه للرد . . وتمنيت أن يرزقه الله بلاغة البلغاء . . فقال وهو يبتسم :

— يا حاج منازع . . جميع قبائل بلدنا يحدث لأولادها ما حدث لابننا . . المشاكل الصغيرة لا تنتهى فى الأسواق والموالد . . ولو أننا تفرغنا لمثلها لما انتبهنا إلى زرعنا ونخلنا . . لا تهمك القبائل الأخرى . . كل قبيلة فيها . . وفيها !

لافض فوك يا شيخ طه . . متعك الله بالصحة وطول العمر !

ووقف الشيخ حمد (العجل) بقامته القصيرة . . قال وهو يبتسم فى دهاء :

— الحوالد لن تسكت على ضرب ابنها مهما كانت الظروف والأحوال إذا لم يحضر وفد من السبيل يعتذر عما حدث خلال عشرة أيام!

ورمقه الحاج منازع بنظرة نارية كأنه يسحقه بها !

وتكلم الحاج موسى — والد صابر — فقال أنه يؤيد الشيخ طه لأن الشبان الذين ضربوا (عامر) لم يكن فى أذهانهم أنهم يضربون واحدا

من (الحوالد) . . وتكلم أكثر الشيوخ وقالوا نفس الكلام الذى قاله الشيخ طه والحاج مومى . . ولم يتكلم أبى . . انشغل فى مداعبة سبحته وكأنه يخشى أن يتهم بالتحيز إلى (أصهاره) إن هو عارض الحاج منازع .. وبدا من الهمهمات الصادرة من هنا وهناك أن الشيوخ يؤيدون الشيخ طه ويعارضون الحاج منازع .. لكن الحاج منازع صرخ فيهم :

— اسمعوا . . هذه أول مرة تترك فيها قبيلتنا ثأرها . . إننى أنبهكم . . هذه أول مرة . . أنا أحذركم . . لن تكون العواقب سليمة بعد الآن . . ذنبكم على جنبكم !

وسكت الحاج منازع . . لكن نظراته النارية التى تدور كأنها الرشاشات كانت تتكلم . . وصاح أحد الشبان من آخر الخيمة :

— ولا يهمك يا حاج . . غدا نضرب أعظم عظيم من السبيل وليكن ما يكون !

فرد عليه الحاج منازع فى حماس :

— تسلم يا سبع ؟

لكن والد الشاب . . صاح فى ابنه فى غضب :

— اخرس يا بن الكلب !

وعم الصمت من جديد . . وقف الحاج منازع يوجه إلى الجميع نظرات الغيظ والحنق . . بينما جلس الشيخ طه بعد أن اطمأن إلى

انتصاره . . ومد الشيخ درويش يده ناحية الحاج منازع — دون أن يراه — وقال لنا فى همس :

— هذه أول مرة أراه فيها مغلوبا ؟

ونزلت كلمة الشيخ درويش بردا وسلاما على قلبي . . لكن الشيخ درويش قال لنا فى همس (انظروا إلىّ . . سأغيظه لكم أكثر) . . . . ثم وقف وقال :

— ربنا لا يحب المشاكل يا حاج منازع . . وأنت رجل عقلك كبير . . إفرض أن بعض العيال حصل لهم (جنان) وضربوا (عامر) . . هل معنى هذا نخرب بلدين من غير ما ننتظر ؟

وصرخ فيه الحاج منازع بكل قوته :

— إنت أسكت ؟

وجلس الشيخ درويش وهو يدارى ابتسامته ويقول فى مسكنة مصطنعة :

— سكتنا !

وعلت الابتسامات أكثر الوجوه . . ووضع صابر يده على فمه ليكتم ضحكته . . وطالت وقفة الحاج منازع . . وتقدم منه أحد الغلمان بصينية القهوة فرفضها بإشارة حازمة من يده . .

وقال لى صابر :

— الحاج منازع رجل عجيب . . هو ينظر إلى قبيلتنا وكأنها من سلالة تختلف عن سلالات البشر — اسمها عنده مقدس وختمها مقدسة وأفرادها مقدسون . . يخيل إلى أن الأمر لو كان بيده لصنع لها علما وسك باسمها النقود وطالب لها بمقعد فى هيئة الأمم ؟ . . إنه يعز عليه أن يهزم فى مسألة كهذه . . كان يتوقع أن توافقه طاولت والى النظـرة النارية وكيف تحولت إلى نظرة ساهمـــة ؟

انظر إلى وقفته إنه يبحث الآن عن حجة جديدة لينصر رأيه . . ولكن من أين له هذه الحجة والشيخ طه — ومعه الشيوخ — يقفون له بالمرصاد؟

وفجأة تحرك الحاج منازع . . اندفع إلى الخارج يخب فى زعبوطه فى سرعة غاضبة دون أن يلقى بالسلام . . ونظر أبناء القبيلة إلى بعضهم بعضا فى ذهول . . وما هى إلا لحظات حتى تدافعوا إلى الخروج فى صمت .

* * *

فى الخارج . . استوقفتنا (منصورة) . . قالت لهفة وتعبيرات وجهها الصارم فى قمة صرامتها :

— هه . . . هل ستأخذون الثأر ؟

فقال لها زوجها — الشيخ درويش وكأنه ينهرها :

— أى ثأر يا امرأة ؟ . . ممن نأخذ الثأر ؟ . . من أولاد صغار لا يعرفوننا ولا نعرفهم ؟

فردت عليه فى حدة :

— وهل أنا سألتك أنت يا رجل يا ناقص ؟ !

فالتفت الشيخ درويش ناحيتى وقال :

— شاهد ؟ . . ألست على حق عندما أقول كان الله فى عونى ؟ . . أليس من الواضح — يا حسين يا ابنى — أن كل واحد فى الدنيا متزوج من امرأة وأنا متزوج من شيخ خفر ؟ !

— ثم التفت إليها وقال لها فى غضب :

— مالك أنت يا امرأة ومال هذه المسائل التى تخص الرجال ؟ . . هه ؟

فردت عليه فى قوة وهى تزمجر :

— وهل تحسب نفسك من الرجال ؟ ؟

فنظر الشيخ درويش إلىّ وقال :

— شايف ؟ . . خلفت منها عشرة عيال ولا تعتبرنى رجلا ؟ . سمعت فى حياتك عن حكاية مثل هذه ؟ !

ثم رفع يديه إلى السماء وقال فى حرقه :

— الله يلعن أبو اليوم الأسود الذى عرفتك فيه . . كان من الأيام التى لم تطلع فيها الشمس وحق رسول الله ! !

ولم تلتفت منصورة إليه . . . تجاهلته تماما . . وقالت لى متسائلة وملاءتها الصوفية العريضة تريد من ضخامة حجمها :

— قل لى عن هذا الذى حصل . . هل اتفقتم على أخذ الثأر ؟

فقلت لها وأنا أطيب خاطرها :

— على كل حال الجماعة لم يتفقوا . . جماعة قالوا نأخذ الثأر .. وجماعة قالوا لا . . . ولم يتفقوا

فضربت صدرها بيدها ضربة قوية وشهقت :

— لم يتفقوا ؟ . . وهل أخذ الثأر فى حاجة إلى اتفاق ؟ . . رجلكم مضروب فى رأسه وذراعه . . أكلت عليه نبابيت السبيل وشربت ولم تتفقوا ؟ . . هل أنتم رجال ؟ !

فقال لها الشيخ درويش فى تهكم :

— لا . . أنت فقط رجل . . هذا يكفى ؟

فردت عليه فى ثورة :

— قلت لك ألف مرة أنا لا أكلمك أنت . . أنا أعرفك . . لو أن أهل السبيل خطفوا واحدة من بناتك ما تحركت ولا تكلمت . . لا تحسب نفسك (نفر) ! !

فنظر إلىّ الشيخ درويش وقال :

— سامع ؟ . . أنا طلقت هذه المرأة عشرين مرة من لسانها الزفر وفى كل مرة يعيدونها إلى بالقوة ؟ . . وتزوجت عليها مرتين وقسمتى السوداء أعادتنى إليها بعد أن طلقت زوجاتى مع أنهن أحسن منها ألف مرة ؟

ثم نظر إليها وقال مهددا :

— هل تظنين أننى لن أؤدبك ؟ . . سأتزوج عليك فى ظرف شهر وحق رسول الله ؟ . . . ما صبرك إلا بالله ؟

فردت عليه متحدية :

— تزوج . . ستعود مثل كل مرة تقبل التراب تحت قدمى وتطلب السماح من سيدتك وسيدة أبيك ؟ . . اعمل (رجل) وتزوج ؟

فقال لها متسائلا فى ثورة :

— ما الذى أخرجك يا امرأة من بيتك فى هذه اللحظة ؟ . . هه ؟ . . هل استأذنت فى الخروج ؟

ثم التفت إلىّ وقال :

— هل سمعت فى حياتك عن امرأة تخرج من بيتها فى الليل من غير أن تستأذن زوجها ؟ !

فقالت له فى تهكم :

— استأذن ؟ . . أين هو الرجل الذى استأذنه ؟ . . أنت ؟ ؟

فقال لى الشيخ درويش وهو يهم بالانصراف :

— سامع ؟ . . لا بد من (حل) مع هذه (الولية) ؟ ثم توقف بعد خطوات وقال لى محذرا وهو يلوح بيديه :

— خلص نفسك منها يا ابنى . . ربنا يساعدك . . والبلاوى لها الصبر ؟

وتركنى مع منصورة أحاول إقناعها بلا جدوى ؟

* * *

استيقظت من النوم منشرح الصدر . . وفى الصباح الباكر هرعنا — أنا وصابر — إلى أحب مكان إلى قلوبنا . . إلى قمة عالية من الصخر تشرف على قريتنا من ناحيتها الشرقية .. تسلقناها فى مرح ووقفنا فوقها ننظر إلى العالم من عل . . . كانت قريتنا تنبسط أمامنا فى شريط طويل مقوس قليلا يحدها النيل من الغرب . والصحراء الشاسعة من الشرق .. تتسع شيئا فشيئا كلما اتجهت إلى الشمال . . حتى إذا قاربت الجسر الكبير الذى يفصلها عن (السبيل) بلغت أقصى اتساعها . . تشقها ترعة طويلة فى خط متعرج يتجه إلى الشمال إذا قاربت — الترعة —

(نجع العمدة) تفرعت إلى فرعين مع اتساع الأرض . . أشار إليها صابر وقال ضاحكا :

— خريطة بلدنا مثل خريطة مصر . . ضيقة فى الجنوب .. متسعة فى الشمال . . حتى الترعة تشبه النيل . . ما إن وصلت نجع العمدة حتى عملت لنفسها (دلتا) . . (ثم ضاحكا) لا تقل ذلك لصديقنا هاشم (ابن العمدة) لكيلا يتنبه لهذه النقطة ويعتقد أن العناية الإلهية هى التى جعلت نجعهم فى مركز العاصمة ؟

ثم أشار إلى رءوس النخل من تحتنا والهواء يداعب جريدها وقال :

— احذف النخل من بلدنا تصبح لا شئ . . أرضها المزروعة لو قسمت على أهلها — لكثرتهم — لما نال كل رب أسرة بضعة قراريط . . لولا النخل وبعض الحدائق لانخفض (الدخل القومى) إلى الثلث ؟

ومن بعيد ظهرت السبيل بخضرتها الزاهية وحدائقها وأبراج الحمام المنتشرة فيها فى خيلاء . . فقال صابر وهو يشير إليها :

— العاصمة السابقة ؟ . . أغدقت عليها الطبيعة بغير حساب . لو قسمت أطها لنال الفرد أكثر من عشرة أفدنة . . الدنيا حظوظ

ونظرت صوب الشرق . . إلى الصحراء . . بلا نهاية . رهيبة مخيفة . . تلال الرمال ترتفع وتنخفض كأنها الأمواج العاتية ... لو غضبت على قريتنا لردمتها فى لحظات ... وتذكرت..

ما حدث لإحدى قبائل بلدنا . . تجمعت برجالها وأطفالها وزحزحت الصحراء قليلا لتزيد رقعتها المزروعة . . وبعد سنة كاملة من العمل المضنى المرهق نبتت الأرض . . وما إن دبت فيها الحياة حتى غضبت الصحراء لنفسها . . شنت على الأرض الجديدة عاصفة هوجاء أطاحت بجهد العام كله فى دقائق . . وهربت ببصرى صوب الشمال . . . وقلت لصابر :

— ما رأيك لو زرنا السبيل غدا ؟

فغمز بعينه . . ثم ابتسم وقال :

— وهو كذلك ؟

* * *

(٦)

— فى عصر نفس اليوم . . التقى بى صابر وبادرنى بقوله :

— ألم تسمع ؟ . . الحاج منازع سيعقد اجتماعا سريا الليلة فى بيته .

— لماذا ؟

— الله أعلم . . لكننى عرفت أن الاجتماع لن يحضره إلا الشبان . . وقد اتصل بى بعضهم وطلب منى أن أخبرك لتحضر الاجتماع .

— أنا أحضره ؟

— طبعا (ثم ضاحكا) ألست شابا ؟

— ولماذا الشبان بالذات ؟

— علمى علمك :

— وكبار السن : : ألم يسمعوا ؟!

— لا . . هو قال لم لا تخبروا الكبار . . والشبان — كما تعلم — يحبون الحاج وينفذون أوامره بكل دقة .

ودارت الدنيا بى :

* * *

بيت الحاج منازع يربض وحده خارج النجع . . له بوابة كبيرة تبدو من بعيد كبوابات القلاع الحربية .

لم أر جماله وأنا أدخله مع صابر فى ذلك المساء . . لم أر السور الأنيق الذى يدور حول البيت . . ولم أر الفناء الواسع النظيف الذى ينتهى فى جانبه الغربى بحديقة صغيرة بها شجرتان من المانجو وشجرة جوافة وعدة نخلات . . فقط رأيت السقيفة الجنوبية الواسعة ووهج « الكلوبات » يزيد من حمرة أعمدتها — وقد تجمع تحتها أكثر من خمسين شابا من شبان قبيلتنا . . جلس بعضهم على أسرة الحبال وجلس البعض الآخر على السجاد الأحمر الذى غطى أرضية السقيفة . . ووضح أنهم اختيروا بعناية .

كان الحاج لحظتها شخصا آخر . . يتنقل بين الشبان كأنه واحد منهم . . يلاطف هذا ويمازح ذاك وكأن سنواته الخمسين قد اختصرت إلى ثلاثين . . والشبان يتجاوبون معه فى حب وإعجاب وعمائمهم المزهرة التى تميل إلى اليمين قليلا أو إلى اليسار — كنوع من دلال الشباب — تشاركهم ضحكاتهم .

وقلت لصابر ونحن نجلس فى آخر ركن من السقيفة :

— هذه أول مرة أراه فيها يمزح .

فقال صابر وهو يحدق فيه فى ذهول :

ـ هنا هو الزعيم الأوحد . . الشبان يحبونه ويعجبون به . . ولا وجود للكبار الذين يشاركونه فى الزعامة أو يضغطون على الشبان . . إنه هنا الملك بين رعاياه . . أو القائد الكبير بين جنوده . . لو أن الحاج منازع نال شيئا من التعليم لاعتبرته أقوى زعيم ظهر على الأرض .

وصمت صابر قليلا ثم قال :

ـ تصور أنه سألنى مرة : « قل لى ياولد . . هل يعلمونكم فى تلك التى يسمونها الجامعة أشياء أخرى غير الحساب » ؟

وانتبهنا على صوت قهقهة جماعية أطلقها الشبان فى أعقاب حديث مازح للحاج . . لم نعرف ماذا قال بالضبط . . ولكننا لاحظنا أن الشبان يقهقهون فى سعادة والحاج يشاركهم الضحك . . لكنهم كانوا يتحفظون فى ضحكهم . . تحفظا يفرضه الحب والإعجاب أكثر مما يفرضه فارق السن أو مكانة الحاج . . بينما ابنه (سليمان) وابن أخيه (محمد) يدوران بالشاى على الجالسين والسعادة تشع من وجهيهما .

وفجأة وقف الحاج وكأنه سيخطب . . اتكأ بيديه على نبوت صغير من الشوم لامع الحمرة لكثرة طلائه بالحناء . . وعادت

التعبيرات الصارمة إلى وجهه فبدا كتمثال .. وصمتت السقيفة صمتا تاما .. واشرأبت الأعناق الفتية بعمائمها المزهرة تسمع لتطيع .. وقال الحاج بعد أن تنحنح قليلا :

— اسمعوا .. أنا دعوتكم لأنكم أنتم (الخوالد) .. أما آباؤكم فإنهم جميعا أولاد كلب .

وصمت الحاج .. كأنما تنبه إلى (نكتته) .. ثم ابتسم .. ثم ما لبث أن قهقه بصوت عال .. وضحك كل الشبان فى سعادة .. وانطلقت تعليقاتهم تخالط ضحكاتهم وهم يتطلعون إليه .. لكن التعبيرات الصارمة عادت إلى وجه الحاج بسرعة .. وتحول وجهه إلى تمثال .. وصرخ فيما يشبه الزئير :

— اسمعوا ؟

وتلجمت الألسن فى لمح البصر .. كأن صاعقة من السماء قد نزلت فأخرست كل صوت . ووضع صابر فمه فى أذنى وقال فى همس وهو يراقب الحاج :

— الآن أنا عرفت السر فى تسلط هتلر على عقول الألمان وقيام الحرب العالمية الثانية .. هتلر أشعل الحرب وخرب العالم .. والحاج منازع سيخرب تجمعنا إن شاء الله .

وجاءنا صوت الحاج منازع كقصف الرعد :

— قبيلتنا من أول الزمان لا تترك ثأرها أبدا .. فما الذى جد اليوم ؟ .. هل يرضيكم أن يقال إن قبيلة الخوالد تحولت إلى نساء ؟

وصمت الحاج . . وجاوبته الصيحات الغاضبة من جنبات السقيفة :

— مستحيل ؟ . . لا نرضى ؟ . . عيب .

وقال الحاج بصوت هادئ يروى طرفا من تاريخ القبيلة :

— حينما كنت فى الخامسة عشرة . . أحاط بى عدة شبان من بلدة (السبيل) . . وكان معى واحد من بلدنا ولكنه ليس من قبيلتنا . . فحال بيننا وبينهم رجل كبير السن من بلدهم . . وسألنى عن اسم قبيلتى وسأل الشاب الذى معى . . فلما قلت له إننى من (الحوالد) قال للشبان الذين أحاطوا بنا وهو يشير إلى :

— لا تضربوا هذا لأن قبيلته (بنت كلب) . . اضربوا الثانى .

ثم أكمل الحاج قائلا :

— أرأيتم ؟ . . لو لم أكن من الحوالد الشجعان لضربت مثلما ضرب الآخر . .

ثم صمت قليلا وقال :

— لو أننا تساهلنا الآن فى ضرب عامر . . لأصبحت (الحوالد) مثلها مثل أى قبيلة أخرى . . هل يرضيكم هذا ؟ .

وصاح الشبان فى حماس :

— أبدا . . لا يرضينا .

فقال الحاج فى صوت هادىء جدا :

— غدا إن شاء الله هو يوم السوق فى (البندر) . . أكثر أهل السبيل سيذهبون إليه . . أريد منكم عشرين رجلا . . وأنا سأذهب معكم . . نذهب معا إلى السوق . . وتتفرقون على كل الطرق التى تربط بين البندر والسبيل . . كل ثلاثة منكم يقفون معا . . لا تحملوا معكم النبابيت أثناء ذهابكم لكيلا يشتبه فيكم أحد من خصومنا ويبلغ الحكومة . . سيحملها أحدكم فى جوال على ركوبته . . وهناك يفرقها عليكم . . وكل من يتسلم نبوته يدفنه بجواره فى الرمال أو فى الحقول .

ثم استطرد الحاج بعد فترة صمت قصيرة :

— أريد منكم أن تضربوا رجلا واحدا من السبيل . . واحدا فقط . . ليكن ضربه معقولا . . لا نريد موت أحد . . فرجلنا لم يمت . . ليكن ضربه قريبا من ضرب رجلنا . . لا أريد أن يتهور أحدكم بضربه ضربة قاضية على رأسه بعد أن يسقط على الأرض . . هذه ضربات الجبناء . . بمجرد أن يسقط الرجل على الأرض فمن العار ضربه . . أفهمتم ؟

وتمتمت الشفاه فى أصوات خافتة :

— فهمنا . . نعرف . . عيب طبعا .

واستطرد الحاج بنفس الصوت الهامس :

— بمجرد أن تضرب جماعة منكم .. الجماعات الباقية تهرب إلى البلد .. وسأجعل من مهمة بعضكم أن يدوروا على الجماعات لينبهوها بالهرب بعد الضرب مباشرة .

ومالت العمائم المزهرة إلى الأمام .. ثم عادت إلى أوضاعها وأكمل الحاج :

— على شرط .. أن يكون المضروب رجلا معروفا ومشهورا فى (الأربع بلاد) .. لا أريدكم أن تضربوا رجلا مسكينا يجرى على رزق عياله .. أريد أن تقول البلاد الأربعة : « الحوالد ضربوا فلان الفلانى » .. لا أريد أن يقولوا : ضربوا واحدا من السبيل . . أهذا الكلام مفهوم ؟

ثم شخص ببصره إلى السماء وعاد صوته يعلو :

— يجب أن تعرف البلاد أن الحوالد ضربوا هذا (الكبير) دون أن يعملوا حسابا لبلده أو لقبيلته .. ضربوه لمجرد أن (ولدا صغيرا) ضرب منهم ...

ثم نظر إلى الشبان وقال لهم فى زمجرة :

— لقد حدثتكم عن الرجل الذى قال لشبان السبيل وهو يشير إلى (لا تضربوا هذا لأن قبيلته بنت كلب) .. أريد منكم الآن

أن تذكروا الناس ليفرقوا فى ضربهم بين الخوالد وبين غيرهم . . يجب أن يسألوا . . كما اعتادوا أن يسألوا — وأن يعرفوا بأن الناس ناس . . وأن الخوالد خوالد . .

ثم صمت قليلا وقال :

— أما عن كبار السن فى قبيلتنا فلن نخبرهم بشئ . . بعد أن نضرب ضربتنا عليهم أن يقوموا بكل النفقات سواء عند الحكومة أو عند (مجالس الصلح) غصبا عنهم . . أما عن العشرين المطلوبين منكم للذهاب غدا . . فهذا أول واحد منهم .

وأشار إلى ابنه (سليمان) . . ثم أشار إلى ابن أخيه محمد وقال :

— وهذا الثانى .

وارتفعت الأيدى فى السقيفة وكلها تطالب بالذهاب إلى السوق ومد الحاج يده إلى واحد وقال :

— ثلاثة .

ثم استمر فى عده :

— أربعة . . خمسة . . ستة . .

وبعد أن وصل للعدد الثامن أشار ناحيتى وقال :

— تسعة . .

وذهلت . . وتركني الحاج ليعد غيرى . . وكدت أجن . . وحدق صابر فى وجهى فى انزعاج شديد . . وخيل إلى أننى أحلم .

* * *

خرجت من بيت الحاج منازع والدنيا تدور بى . . أنا سأذهب إلى سوق البندر لأقف فى (رباط) من ثلاثة شبان أنتظر مرور رجل معروف من أهل السبيل لأنهال عليه ضربا بالنبوت حتى يفقد وعيه ؟.. أنا ؟ . . أنا الذى أزعم لنفسى أننى إنسان متمدين . . وأغرق حتى أذنى مع الزملاء فى مناقشات أدبية وسياسية وفنية . . وأعتقد — أحيانا — أننى أهتم بمشاكل العالم وقضاياه ؟ . . لكن دعنا من هذه الأمور التى لا اعتبارات لها عند قومى . . وبدوية ؟ . . ماذا تقول عندما تسمع أننى أنا الذى ضربت (الكبير) من بلدهم ؟ . . لقد قالت لى مرة إن بعض أفراد قبيلتها حذروا والدها من زواجها منى بسبب العداء المستحكم بين البلدين . . لكنه رد عليهم بأن خطيب ابنته (متعلم) ولا دخل له بهذه المسائل . . رباه . . ما هو قوله الآن عندما يسمع أن خطيب ابنته هو الذى ضرب (الكبير) ؟ . .

هل أنا أحلم ؟ . . لابد أننى أحلم . . أجل . . حلم هو . . إذ من غير المعقول أن تتطور الأمور فتصل بى إلى هذا الحد . . تصل إلى درجة تكليفى أنا — أنا بالذات — بهدم سعادتى بيدى ؟ . . مستحيل .

لكن الأمر ليس حلما . . بدليل أننى أسير الآن فى طريقى إلى البيت تحت ضوء القمر وظلال جريد النخل تتراقص أمامى كأنها الأشباح . . لا حلم فى الأمر . . بل حقيقة واقعة . . رباه . . كيف هذا ؟ . . وما العمل ؟ . . يجب أن أتصرف . . وبسرعة . . أجل . . يجب أن أتصرف . . لكن . . كيف أتصرف ؟

المسألة بسيطة جدا . . أذهب إلى كبار السن فى القبيلة وأخبرهم بما دبر الحاج منازع . . هم جميعا لا يوافقون على شئ من هذا . . سيهبون جميعا لمنع الشبان من الذهاب إلى البندر وينتهى الأمر . . لا ينبغى أن أحزن أو أحمل هما . . الأمر فى غاية البساطة . . لكن . . لمن أذهب ؟ . . إلى الشيخ طه ؟ . . إنه نائم الآن . . بل يغط فى نوم عميق . . فهو رجل يدخل داره بعد صلاة العشاء مباشرة . . أصبر عليه حتى الصباح ؟ . . سيكون الأمر قد أفلت . . ففى الصباح الباكر سيتجه الشبان إلى سوق البندر . . ما العمل إذن ؟ . . أتصل بغيره من شيوخ القبيلة ؟ . . ولماذا شيوخ القبيلة ؟ . . الأفضل أن أوقظ أبى من نومه وأخبره بالأمر ليتصرف بمعرفته . . أجل . . هو أكثر خبرة منى فى معالجة مثل هذه الأمور . . لكن . . كيف أواجه أبى . . ؟ . . أليس من المحتمل أن يسخر منى — فيما بعد — ولو بينه وبين نفسه — من أننى جبنت عن الذهاب مع الشبان فأيقظته من نومه لأخبره ؟ . . قد لا يقول ذلك صراحة . . ولكن عينيه ستقولان ما لم ينطق به لسانه . . حتى الشيوخ — بما فيهم الشيخ طه — سيدور

بخلدهم أن جبنى من الخروج مع الشبان هو الذى دفعنى للاتصال بهم . . فهل باستطاعتى احتمال مثل هذه النظرات التى تتهمنى بالجبن ؟ . . لا . . الموت أهون عندى من أن يتهمنى إنسان — حتى لو كان أبى — بالجبن . . لكن . . لا . . يجب أن أتصل بهم . . بالشيوخ . . فلن يتهمونى بالجبن كما كنت أعتقد . . سيقولون خاف أن يفسد الأمر بينه وبين أصهاره فأبلغنا . . أجل . . لى عذرى . . لكن . . ألا يبدو الأمر فى نظرهم كمن باع (وطنه) فى سبيل امرأة ؟ . . أجل . . سيصورون الأمر هكذا . . فالقبيلة فى مجتمعى لا يعلو عليها شئ . . ألم يطلق أحد أفراد قبيلتى زوجته لأن معركة نشبت مع قبيلتها فتفوهت بكلمات تحيزت فيها لقومها ؟ . . ما العمل إذن ؟ . . هل أرفض الخروج مع الشبان غدا ؟ . . أجل . . هذا هو الحل السليم . . فليذهب الشبان إلى السوق غدا . . وليفعلوا ما يريدون فعله . . أما أنا فلن أخرج من بيتى ولو انطبقت السماء على الأرض . . لكن . . لماذا لم أقل ذلك للحاج منازع فى اجتماع السقيفة ؟ . . خفت من الاتهام بالجبن ؟ . . أجل . . خفت أن يسخر منى الجميع . . على كل حال هذا لا يهم . . المهم الآن ألا أذهب إلى السوق . . فليذهبوا هم . . لكن . . كيف سأواجه شبان القبيلة بعدها ؟ . . كيف أعيش بينهم ؟. وكيف أخالطهم ؟ . . وكيف أخرج (بالصينية) وعليها العشاء فى المراسم والأعياد وأيام شهر رمضان لتناول الطعام مع كل أفراد القبيلة كما جرت العادة ؟ . . بأى وجه سأذهب إلى الخيمة فى أيام

المآتم والأفراح ؟ . . إن المأتم — مثلا — يستمر أكثر من خمسة عشر يوما . . وتتحول الخيمة — فى الليل — إلى بيت كبير . . فكل أبناء القبيلة يبيتون فيها مع أهل المتوفى من الرجال . . وكل جماعة منهم يتحادثون معا ويروون الحكايات — وما أحلها — عن كرم القبيلة — قديما وحديثا — فى الضيافة وشجاعتها فى المواقف الحاسمة . . ويتطوع البعض لرواية النوادر والمفارقات . . وينتهزها الكبار فرصة لقص ذكرياتهم . .

كيف أقضى تلك الليالى معهم إن أنا تخلفت اليوم عن الذهاب إلى سوق البندر ؟ . . وهل سيكلمنى أحد أو ينظر فى وجهى أحد أو يرضى بصحبتى أحد إن أنا تخلفت ؟ . . وهل سيسلم أبى من غمز الرجال أو تسلم أمى أو أختى أو أختى من الكلمات المسمومة سواء أكانت من الرجال أو من النساء ؟

لا مفر من الذهاب إلى سوق البندر . . وسواء ذهبت أم لم أذهب فإن الواقعة ستقع منى أو من غيرى وستتوقف الحياة تماما بين بلدنا وبين السبيل وتنتهى بدوية بالنسبة لى وإلى الأبد . .

غدا . . آخر النهار . . يذهب أحد شيوخ السبيل إلى والد بدوية ويدق عليه باب بيته ويقول له فى غضب : « أرأيت ياشيخ صالح . . الخوالد الذين طالما حذرناك من مصاهرتهم ضربوا (فلان الفلانى). .

ويرد الشيخ صالح على الفور فى حرج شديد : « لا . . لا . . لن أصاهرهم . . فلم نرتبط بشئ بعد » .

وينتهى الأمر . .

يا لله . . من كان سيظن أن الأمور ستنتهى هكذا ؟

* * *

وسمعت خطوات صابر خلفى وهو يحاول اللحاق بى . . كنت قد نسيته من هول الدوامة التى تدور فى أعماق . . استوقفنى لاهثا وهو يحتج على سرعة سيرى :

— ما هذا . . أحصان أنت ؟

ووقفت أحدق فى وجهه فى بلاهة وذهول . . وقال لى صابر :

— ماذا ستفعل ؟

قلت له :

— سأذهب طبعا

— السوق ؟

— طبعا

— لكن . . ألا يوجد حل ؟

— أى حل ؟

فكر قليلا ثم قال :

— نذهب إلى الكبار ونخبرهم بكل شئ . . ما رأيك ؟

وشرحت له موقفى . . وبعد جدال طويل قال لى :

— أنا سأذهب إلى أبى . . وأخبره بالأمر . . لن يتهمنى أحد بالجبن مادمت لست فى العشرين الذين سيذهبون إلى السوق . . وسأفسد الأمر كله إن شاء الله . . اطمئن .

ثم قال لى وهو يودعنى :

— لا أدرى لماذا اختارك الحاج منازع ضمن العشرين . . هل لأنك فى نظره من شبان القبيلة الذين يعتمد عليهم لأنك تجيد لعبة التحطيب . . أم لمعرفته بعلاقتك بأهل السبيل فأراد أن يضعك أمام الأمر الواقع فلا تفسد عليه تدبيره ؟

* * *

حاولت أن أنام بشتى الطرق . . مرة على جنبى الأيمن ومرة على الأيسر . . ومرة أضع رأسى بين وسادتين وأضغط عليها بهما . . ولكن بدون جدوى . . كنت أريد أن أهرب من وساوسى بالنوم . . وحاولت أكثر من مرة أن أترك حجرتى – التى يرقد معى فيها أخى الصغير – وأطرق على أبى باب حجرته . . وأقوده بعيدا عن أمى لأفضى عليه بالأمر ونتشاور معا فى هدوء . . لكننى كنت أتراجع فى كل مرة . . فأنا أعرف مقدما ما سيحدث . . سيحزن أبى

ى باطنه لأننى سأذهب مع العشرين شابا . . لكنه لن يظهر لى هذا الحزن . . سيغمغم ببضع كلمات يعارض فيها الحاج منازع . . وربما يشتمه أيضا . . لكنه أبدا لن يستطيع أن يقول لى لا تذهب . . هو يعرف عاقبة هذا عليه وعلىّ وعلى أخى وأمى وأختى وأعمامى أيضا . . كما أنه لا يستطيع أن يذهب إلى شيوخ القبيلة ويخبرهم . . هو بالذات لا يستطيع . . سيقولون « خاف على ابنه » . . سيفكر أبى طويلا . . طويلا وفى النهاية سيقول لى وهو يخفى حزنه : « وماله ؟ . . تذهب إلى السوق مع أبناء عمك مثلك مثلهم . . لماذا تزغرد النساء فى القبيلة عندما يولد غلام جديد ؟ . . أليست الزغاريد من أجل سداده فى مثل هذه المواقف ؟ » . . لكنه سيعود ويقول لى : « حاول أن تجعل زملاءك هم الذين يضربون . . لا تضرب أنت إلا عند الضرورة القصوى » . . وسيذهب إلى فراشه فى حزن . . ولن يغمض له جفن . . هذا كل ما سيدور بينى وبينه . . ولماذا أخبره ؟ . . لأحرمه النوم ؟ . . فقط ؟ لا . . لن أفسد عليه ليلته .

* * *

وقفت فى الطريق الذى يشق حقول القصب ويربط قرية السبيل بالبندر . . نبوتى فى يدى أنتظر أول قادم عليه (القيمة) من السبيل . . ولم يطل انتظارى . . سرعان ما ظهر رجل من بعيد يمتطى حمارا يشبه الجواد تنسدل على كتفيه عباءة سوداء . . هذا هو الرجل المطلوب . .

مظهره يدل على مكانته فى قومه . . زعبوطه الواسع من القماش الغالى الثمن يدل على ثرائه . . هذه هى الفرصة . .

وتقدمت منه بخطوات ثابتة لأعترض طريقه . . ووثبت عليه . . ضربته بنبوتى ضربة قاضية تعلمت تصويبها فى لعبة التحطيب فألقيته أرضا . . وصرخ الرجل فى فزع وهو يقف على رجليه ويرتعش والدماء تسيل بغزارة على وجهه . . بينما انطلق الحمار يركض فى فزع وينهق نهيقا مزعجا وكأنه يعرف ما يحدث لصاحبه . . وهجمت عليه . . وقد أثارنى صوت الحمار المزعج فأظهر الوحش الكامن فى أعماقى . . ورفعت نبوتى لأهوى به عليه للمرة الثانية . . وصرخ الرجل بى كالمستغيث :

— حسين . . أنا صالح يا حسين . . أنا صالح .

ولشد ما كانت دهشتى عندما تبينت أنه الشيخ صالح . . والد بدوية وصرخت بأعلى صوتى وأنا أرى الدماء تتدفق من وجهه وفمه . . بينما صوت حماره المفزوع يشق الفضاء .

وهببت من نومى مذعورا وصوت حمارنا — المربوط خارج البيت— يشق السكون الذى يخيم على النجع .

وظللت أرتعش فى فراشى حتى أشرق الصباح .

(٧)

فى الصباح الباكر كنت فى طريقى إلى (البندر) .. المسافة بين قريتنا وبين السوق ثلاثة كيلو مترات . . كنت أرتدى جلبابا من الصوف الكحلى على الصديرى الحريرى والقميص الأبيض . . وقد لففت على رأسى عمامة كبيرة — ثلاثة أمتار — فوق طاقية بيضاء بها نقوش صفراء . . ولم أكن أحمل بيدى نبوتا . . بل خيزرانة صغيرة من التى يحملها الجميع . . كنت أعرف أن النبابيت أرسلت إلى البندر مع أحد شبان القبيلة . . وبمجرد أن وصلت إلى الطريق الكبير المؤدى إلى السوق التقيت بـ (سليمان) بن الحاج منازع . . وهو شاب ضخم الجثة . . طويل القامة . . فى العشرين من عمره . . شديد السمرة . . له أنف أبيه الحساد . . لكنه طيب القلب إلى حد كبير . . وقف ينتظرنى بمجرد أن لمحنى . . ولما اقتربت منه صافحنى فى حرارة وقال لى وهو يضحك :

— أنا سعيد لأن (قسمتى) وقعت معك .

— كيف ؟

— أنا وأنت وسعيد الكبانى سنكون (رباطا) واحدا .

— على خيرة الله .

— هكذا قال الحاج (يقصد والده) وهو يضع (الخطة) .

— ربنا يوفق !

— أول ما عرفت أنك ستكون معى كدت أطير من الفرح . . قلت لنفسى سيكون معى أحسن (مهندس) فى لعبة التحطيب فى بلدنا كلها .

— متشكر .

— نحن الثلاثة سنرد للقبيلة ثأرها بإذن الله .

— إن شاء الله .

— مالك ؟

— لا شئ .

— لست كعادتك . . تسير صامتا كأنك تفكر فى شئ .

— لا شئ . . أبدا .

— هل تحمل هما لهذا الأمر ؟ . . المسألة بسيطة . . وأنت تعرف يابن العم . . لن تأخذ منا أكثر من خمس دقائق . . بعدها سنهرب إلى البلد . . وكبار السن يتولون الباقى .

— أعرف .

— عندما يصل الخبر للحكومة . . سيطلع العساكر من المركز يركبون الخيل ويمسكون كل من يحمل نبوتا . . لكننا دبرنا الأمر . . النبابيت سيجمعها واحد فى جوال ويعود بها إلى البلد كما جاء بها . .

ولو حدث وقبضت الحكومة على واحد منا فكل ما سيحدث له أنه سيبيت ليلة على (البلاط) يأكل فيها دجاجا وبطا على حساب كبار السن فى القبيلة ويخرج فى اليوم الثانى .

— معروف .

وضحك سليمان وهو يقول :

— سأتعمد أن أحمل نبوتا فى يدى كى تمسكنى الحكومة لأشبع من لحم الدجاج . . أمى سامحها الله تخاف على دجاجها بشكل عجيب . . عندما تنوى أن تذبح لنا دجاجة تظل غاضبة طول اليوم كأنها ستذبح أحد أولادها . . لولا خوفها من الحاج لما عرفنا طعم الدجاج . . مالك يا حسين ؟

— لا شئ .

— هل تفكر فى تلك المسألة ؟

— أى مسألة ؟

— زواجك من بنت الشيخ صالح ؟

— لا .

— لا تهتم لهذا الأمر . . ما قيمة الشيخ صالح أو قيمة بنته فى أمر يخص القبيلة ؟ . . الدنيا ملانة بالبنات . . تستطيع أن تتزوج أى واحدة ما دمت تملك النقود والأصل الشريف .

— طبعا

— لا تنس أيضا أننا مقبلون على أمر ستروى عنه الحكايات فى المجالس على أيامنا وأيام أولادنا .. سيقولون السبيل ضربت (ولدا) من الخوالد .. فهب حسين وسليمان وسعيد وضربوا واحدا من أعظم عظماء السبيل .. لكن أرجو من الله أن يقع (الكبير) من نصيبنا نحن الثلاثة .. أنا نذرت للشيخ عمران عشرة قروش لو جعله من نصيبنا !

* * *

وجمعنا الطريق برجل كبير السن من إحدى قبائل بلدنا اسمه عثمان .. كان يركب حمارة بطيئة السير فى طريقه إلى السوق .. ويضع عليها سرجا ويضع فوقه جوالا امتلأ لنصفه بالحبوب .. كان فى حوالى الخامسة والخمسين من عمره .. يرتدى زعبوطا رخيصا ويلف على رأسه عمامة كبيرة قديمة .. ومع أننا — أنا وسليمان — كنا نسير على أقدامنا إلا أننا أدركناه وكدنا نتجاوزه .. وصاح فينا الرجل فى ود بمجرد أن ألقينا عليه بالسلام :

— أهلا .. أهلا بالخوالد .. حبابكم عشرة !

وقلنا فى نفس واحد :

— أهلا بك ياشيخ عثمان .

فقال وهو يضع يديه على جانبي الجوال ليحفظ توازنه :

— أنا (زعلان) منكم ياخوالد !

فقال له سليمان وهو يبتسم له :

— لماذا ياشيخ العرب ؟ . . هل أغضبك أحد منا ؟

فقال الرجل وهو يبتسم فى طيبة :

— لا . . لا . . أنا لا (أزعل) منكم أبدا . . لعن الله من (يزعل) منكم يا (ملح) البلد ! . . أنا فقط (زعلان) من أجلكم . . كيف يضرب رجلكم وتسكتون ؟ . . هذه ليست عادتكم . . هل جرى للدنيا شئ ؟ !

انفعل سليمان . . وكاد أن يصرخ للرجل بأننا فى طريقنا لأخذ الثأر . . لكنه تمالك نفسه فى اللحظة الأخيرة . . وقال للرجل وهو يتنهد :

— ربنا يعدلها .

فمصمص الرجل شفتيه وقال :

— خسارة يا خوالد . . كان آباؤكم وأجدادكم يردون ضربتهم وضربة غيرهم . . كانوا يحمون الضعيف ويضعون أنف المفترى فى التراب . . فى إحدى المرات قبيلة (العناقيد) ضربت واحدا من قبيلة (السوابع) ولم تستطع السوابع أن تأخذ ثأرها لخوفها من

سطوة العناقيد . . وكان للمضروب ابن عم أمه من قبيلتكم . . فلجأ إلى الخوالد .. وقال لهم : « أنا فى حماكم يا أخوالى! » . فرد عليه كبار الخوالد فى الحال : « ونحن قبلناك يابن الأصيلة! » .. وبعد ثلاثة أيام قام الخوالد بضرب أكبر كبير فى العناقيد . . أى والله . . أكبر كبير . . فما الذى جرى لعقولكم الآن . . . تأخذون ثأر غيركم وتتركون ثأركم ؟ . . أيرضيكم أن يتكلم الناس (عليكم) بعد أن كانوا يتكلمون (عنكم) ؟

ونظر سليمان إلى وجهى فى صمت وكأنه يقول لى : « أيرضيك » ؟ ثم أخرج الشيخ عثمان (علبة المدغة) فتناول منها ما وضعه فى فمه وقال بعد أن بصق على الأرض :

— الله يرحمك ويغفر إليك ياشيخ فراج . . الله يرحمك .

وتذكرت أن الشيخ فراج هذا كان أحد زعماء قبيلتنا منذ نصف قرن تقريبا . . وقال الشيخ عثمان :

— حينما كانت بلدنا تابعة لعمودية السبيل . . ذهب رجل من بلدنا اسمه أحمد السالم — وهو من قبيلة (التغالب) — إلى الشاطىء الثانى من النيل بعماله ليحضر السباخ من الجبل إلى زراعته . . وبعد أن ظل يكوم فى السباخ لمدة ثلاثة أيام اضطر إلى العودة لبلدنا لأمر من الأمور . . وجاء ابن عم عمدة السبيل بعماله . . ورجاله فوجد السباخ مكومة . . فحملها فى مراكبه بعد أن طرد عمال أحمد السالم . .

وذهب بالسباخ إلى السبيل وكومها فى الساحة التى أمام دار العمدة . . وحاول أحمد السالم — المسكين — أن يعيد سباخه فلم يستطع . . فذهب إلى قبيلته وأخبرها . . فطيبت خاطره وقالت له نحن نعوضك عنها ولا داعى للمشاكل مع العمدة وإثارة غضبه . . لكن الرجل رفض . . فحمل نبوته وحربته وذهب — وحده — إلى السبيل . . وفى الطريق التقى به زعيم الخوالد . . الشيخ فراج الله يرحمه . . وعرف حكايته . . فطيب خاطره ومنعه من الذهاب وحده خوفاً عليه . . وأرسل رسولا من الخوالد إلى عمدة السبيل . . وقال له : « قل لحضرة العمدة فراج يسلم عليك . . ويقول لك نريد سباخ أحمد السالم » . . لكن العمدة قال للرسول : « قل للشيخ فراج العمدة يسلم عليك . . ويقول لك إنه لم يسمع عن حكاية السباخ هذه . . لكنه سيبحث الأمر » . . ولما عاد الرسول بهذا الكلام للشيخ فراج غضب أشد الغضب . . وقال للرسول : « عد إلى العمدة . . وقل له فراج يسلم عليك . . ويقول لك . . لن تدور ساقية بعد اليوم فى السبيل . . ولن يسمع فيها صوت عدد . . ولن يصهل فيها جواد أو يرغى جمل . . إن لم تصلنا سباخ أحمد السالم فى ظرف يوم واحد . . والمفترى عليه الله ! ! » .

ثم صمت الشيخ عثمان قليلا وقال وصوته يتهدج :

— وبعد ثلاث ساعات . . جاءت سباخ أحمد السالم محمولة على جمال العمدة وحميره مع وفد كبير يعتذر عما حدث !

هزنى كلام الشيخ عثمان . . هز كل ذرة فى كيانى . . إذن . . قبيلتى كريمة والله . . الضعيف عندها قوى حتى تأخذ له حقه . . والقوى عندها ضعيف حتى تأخذ منه الحق . . كريمة هى والله . . عنفها الذى عرف عنها ليس نابعا من حبها للشر كما يزعم الزميل صابر . . ولكنه ينبع من كرم متأصل فيها . . وما على « لو أننى ساهمت فى الحفاظ على هذا (الكرم) ؟ . . ثم ماهى الوطنية وما هو الوطن ؟ . . وما الفرق بين الولاء للوطن والولاء للقبيلة ؟ . . أو ليس الوطن يكلفنا أحيانا (بمهمة وطنية) تذهب ضحيتها أرواح بريئة من الأعداء ؟ . . ليكن هذا (الكبير) من السبيل أحد هؤلاء الأبرياء ! . . ليكن ! . . ماذا فى هذا ؟ . . هذه مثل تلك ! . . لكن . . وبدوية ؟ . . ما العمل بالنسبة لبدوية ؟ . . واحر قلباه !

وقطع على الشيخ عثمان أفكارى بقوله :

— جاء ذكر ابنى (شمندى) فى أحد المجالس . . فقلت إن شمندى شجاع . . فسخر منى أحد الجالسين . . وقال لى فى تهكم : « من أين جاءته الشجاعة ؟ . . من ناحية أعمامه أم من ناحية أخواله؟!» أقول لكم الحق . . غضبت . . ضاقت الدنيا بى . . خصوصا عندما رأيت ضحك المجلس . . فتذكرت أن جدة أبى لأمه من قبيلتكم . . فقلت للرجل بأعلى صوتى : « ابنى جاءته الشجاعة من أجداده الجوالد ياولد ! . . هل تستطيع أن تتكلم عن هؤلاء

الذين يأخذون ثأرهم ولو كان عند عساكر الترك ؟ ! » . .
وفعلا . . سكت الرجل كأننى ملأت فمه بالتراب !

بالله . . ما أروع حديث الشيخ عثمان ؟ ! لهم حق والله أبناء قبيلتى فى غيرتهم عليها وخوفهم على سمعتها . . هل يتمنى الإنسان (وطنا) أفضل من هذا ؟ . . أن (يتشرف) الآخرون بالانتساب إليه والتمسح فيه ؟

وقال الشيخ عثمان وهو يهز رأسه فى أسف :

— لن أستطيع أن أفخر بكم بعد اليوم . . خسارة ياخوالد !

كلمات الرجل جعلتنى أنسى كل شئ . . حتى بدوية . . إلا أن أثار لقبيلتى بأى طريقة من الطرق !

* * *

كان المكان الذى وقف فيه (رباطنا) — سليمان وسعيد وأنا — هو منتصف الطريق الذى يشق حقول القصب . . نفس الطريق الذى كنا نقطعه أنا وبدوية . . كأن القدر أراد أن يزيد فى أحزانى فرمانى فى طريق لى فيه ذكرى عند كل جسر وكل قناة من قنواته . . بل عند كل عود قصب من أعواده . . هناك . . عند تلك القناة . . وقفت مرة تقول لى وهى تبتسم وقد لفت يديها الجميلتين على حقيبة المدرسة التى أسندتها إلى صدرها :

— قلت لأبى أريد أن أدخل الجامعة بعد الثانوى . . فقال لى أحمدى ربنا . . أكثر البنات تمنع من المدرسة بعد الابتدائية مباشرة !

وقلت لها :

— آه يابدوية لو ذهبت إلى الجامعة . . لوحدث هذا لانتظرتك أمام باب الجامعة لأوصلك إلى البيت كل يوم . . نسير معا فى شوارع مصر وذراعى فى ذراعك .

فقالت محتجة :

— لا . . لن أسمح لك أن تضع ذراعك فى ذراعى فى الطريق أمام الناس !

— لكنهم فى مصر يفعلون ذلك دون أن يمتعض أحد

— أهل مصر أحرار . . ونحن أيضاً أحرار !

— ياسلام لو رأيت السينما هناك يابدوية . . هناك فى كل شارع سينما . . هى ليست كسينما البندر التى لايدخلها إلا الرجال . . وبعضهم لايجد الكراسى فيتربع على الأرض ! . .

فضحكت وقالت :

— كم هى لذيذة . . لم أرها إلا مرة واحدة بصحبة أبى عندما كنت فى السابعة من عمرى . . ومنذ أيام قلت لأبى أريد أن أذهب إلى السينما فقال لى فى إحتجاج « هذا هو الذى كان (ناقص) ! »

فقلت لها وأنا أشير إلى شعرها المصفف بطريقة حديثة :

— من علمك أن تفعلى بشعرك هذا ؟

قالت وقد احمرت وجنتاها :

— واحدة صاحبتى من بنات البندر أسمها (فواكه) .

— بنت قبيلة هى ؟

— لا . . من مصر . . ليس لها (أصل) !

وضحكنا عندما اكتشفنا أننا نردد كلمة (الأصل) بحكم العادة !

يالله . . هنا . . فى هذا الطريق . . مرت أجمل أيام حياتى . . تبخرت كأنها الأحلام . . أكانت أحلام هى ؟ . . أم أن وقفتى هذه مع (الرباط) هى الحلم ؟

* * *

انهمك سليمان وسعيد فى لعب (السيجة) . . كانا يتظاهران باللعب . . ولم أعرف — إن كانت أعصابهما متوترة مثل أعصابى ويتظاهران بعكس ذلك أم لا . . ورحت أشاهد لعبهما بلب شارد . . كان سعيد بعكس سليمان . . شابا نحيف الجسد . . فى الخامسة والعشرين من عمره . . على وجهه الداكن آثار الجدرى . . يرتدى جلبابا قديما نوعا ما من (العبك) المصبوغ . . ويلف على

رأسه عمامة ضخمة متسخة بعض الشئ . . يترك طرفها يتدلى على جانبه الأيسر كنوع من دلال الشباب . . ويلبس فى أصبعه خاتما رخيصاً . . ومع أن سليمان يعتبر من الموسرين فى القبيلة لأن أباه يمتلك عشرين فدانا ، بينما لاتملك عائلة سعيد أكثر من بضعة قراريط . .إلا أنهما كانا يتعاملان على قدم المساواة شأن أفراد كل القبيلة .

ومر علينا رجل كبير السن من السبيل . . تبدو عليه رقة الحال . . يسحب وراءه بقرة فى طريقه إلى السوق . . ونظر سليمان ناحيته وقال باسما فى صوت خافت :

— الفقر نعمة والله . . لو كان هذا الرجل (كبيراً) لكسرنا أضلاعه بنبابيتنا !

فنظر سعيد إلى الرجل وقال متسائلا :

— وما يدريك أنه ليس كبيراً فى قبيلته ؟

فقال سليمان وهو يشير إلى الرجل :

— من شكله يبدو عليه أنه لاهنا ولا هناك !

فقال سعيد فى مزاح وهو يحرك أحد (جنوده) فى السيجة :

— المسألة مسالة (أصل) يا بغل ! . . ليست مسألة غنى وفقر :

فقال سليمان وهو يحاصر (جنود) سعيد فى السيجة :

— طبعاً أصل . . لكن الأصل مع الغنى أفضل

فرفع سعيد رأسه وقال وهو يتصنع الجد :

— ها أنتم عندكم عشرون فدانا مثلا . . هل أنتم أحسن منى ياأولاد الكلب ؟ !

فضحك سليمان وقال له وهو يشير إلى السيجة :

— خلص نفسك هنا أولا . . ثم بعد ذلك قل أدبك !

واندمجا فى اللعب .

* * *

مر علينا أناس كثيرون من بلدة السبيل . . رجال يقودون أبقارهم . . ونساء يحملن على رءوسهن أطباق الخوص . . وشبان يسوقون أمامهم العشرات من الماعز والأغنام . . وبعض (البشارية) بشعورهم الطويلة وسيوفهم المدلاة على جانب خصورهم . . يركبون الجمال الهائلة الحجم وقد اخترقوا السبيل من الصحراء فى طريقهم إلى السوق . . لكن لم يمر علينا أحد تنطبق عليه الشروط المطلوبة . . وفى أول الصباح مر علينا (عبد الحفيظ) — وهو أحد خمسة مهمتهم أن يكونوا حلقة اتصال بين الجماعات — وقال لنا إن الحاج

منازع وصل (البندر) ويجلس الآن فى (قهوة المطاعنة) يشرب (الشيشة) ويعد لكل أمر عدته . . وتركنا وانصرف .

ولفت نظرى حجر كبير انغرس نصفه على أحد الجسور — كحد فاصل بين حقلين — وبرز نصفه الآخر كأنه مقعد كبير . . وتذكرت يوم أن وقفنا أنا وبدوية عند هذا الحجر . . قلت لها فى ذلك اليوم :

— فاكرة يوم البطة ؟

— فاكرة

— كنت يومها تبحثين عنها فى حقول الذرة الغزيرة..شرق النجع

— يومها تعبت آخر تعب

— أنا يومها كنت (مكوع) فى حوش النخل الشرقى وسمعت صوتك فى قنوات الذرة ينادى على البطة : « بحيح . . بحيح . . بحيح» وطلعت ألف عليها معك .

— أنا خفت منك فى الأول

— ما السبب ؟

— طلعت على غفلة . . الدنيا ظهر . . وحر . . ولا أحد فى الغيطان . . وأنت ظهرت من ورائى مثل المارد . . القميص

(الكريشة) مبين كل جسمك . . خصوصا جسمك أسمر وعرقان والقميص أبيض . . وشعر راسك منكوش وعمامتك فى يدك . . وقلبي طق !

— خفت منى ؟

— خفت من ظهورك على غفلة . . من غير لا (حس ولا بس) . . أصلك — كمان — كنت (حافى) !

— أنا أيامها كنت فى الثانوى

— وأنا كنت فى الإعدادية

— يومها سألتك . .البطة ضاعت ؟ . . فلم تردى على . .

— أصلى كنت (زعلانه) على البطة . . لأنها بطتى أنا وعزيزة على نفسى

— قعدت ألف عليها معك وأقول فى نفسى يارب ماتلقاها إلا فى المغرب !

— وأنا كمان نسيتها !

— نسيتها ؟

— . . . . . .(تضحك)

— كانت الجلابية البيضاء التى عليها رسوم القطط (خايلة) عليك !

— وأنت كان قميص الكريشة المبلول من العرق كان (خايل) عليك !

— قلت لك لو لقيت لك البطة . . آخدها ؟ . . رحت (لاوية بوزك) من غير ماتردى على !

— . . . . (تضحك)

— ولما لقيتها لك راقدة فى الظل تحت النخلة خطفتها من يدى ومشيت بها فى حضنك من غير ماتقولى (كتر خيرك)

— لو قلت لى هاتى البطة . . كنت أعطيتها لك

— كدابه !

— والله العظيم !

— يومها قعدت أفكر فيك طول النهار

— وأنا !

— لا ؟

— وحياة ربنا !

* * *

عندما وصل تفكيرى إلى هذا الحد . . فوجئت بسليمان يقول فى ذعر :

— حسين . . مالك ياحسين . . مالك ؟

وانتبهت إليه . . وسألته بدورى فى ذهول :

— مالى ؟

فقال وهو يشير إلى وجهى والدهشة مرتسمة على كل تعبيرات وجهه :

— تبكى ياحسين وتكلم نفسك ؟ . . مالك يابن العم . . مالك ؟

وانتبهت إلى أن الدموع تغرق وجهى دون أن أشعر بها . . وترك الزميلان اللعب وأحاطا بى يربتان على كتفى والدهشة مرتسمة على وجهيهما دون أن يعرفا لبكائى سببا . . بينما وقف سليمان وضم رأسى بيديه إلى صدره .— وكنت أجلس على جسر — فكانت حركته هذه كافية لأنخرط فى البكاء بلاتحفظ !

* * *

قاسية أنت يادنيا . . لاقلب لك . . تفرقين بين الأحبة بلارحمة لايهمك أن يتحطم من يتحطم أو ينجو من ينجو . . لا يهمك من يبيت ليلة يتقلب على الجمر أو لايتقلب . . الأمر سيان عندك . . لك قوانين تسير دون أن تعمل حسابا لعواطف الناس . . الناس فى نظرك لا يختلفون عن بقية الكائنات التى تعجين بها . . كل مايهمك أن تستمر الحياة . . تستمر على أى وضع . . لايهم إن كان هذا لتلك أو كانت هذه لذاك .. سيان الأمر عندك مادمت تضمنين استمرارك .. لكنك لاتعرفين أنك تلفظين الكثيرين بطريقتك هذه .. أولئك الذين

لايعترفون بطريقتك فى الاستمرار . . لكنك لاتردين عليهم . . لاتعيرينهم أى التفات . . تطحنينهم بلا مبالاة وكأنك لاتفعلين شيئاً . . قاسية أنت . . لاتعرفين شيئاً عن الرحمة . . لم تسمعى عن شىء اسمه العاطفة . . قاسية أنت يادنيا . . غادرة

* * *

وقال لى سليمان بعد أن توقفت عن البكاء :

— حسين . . قم اذهب إلى البلد يابن العم

فقلت له وأنا أنتفض وقد بدأت أشعر بالخجل لبكائى :

— أنا ؟ . . مستحيل !

قال لى وهو يجلس بجوارى . . بينما وقف سعيد يحدق فى وجهى مذهولا :

— لن نقول لأحد فى القبيلة إنك ذهبت . . فقط لاتجعل أحدا يراك هناك . . سنقول لهم إنك كنت معنا . . حتى لوضربنا سنقول إنك ضربت معنا . . قم يابن العم . . قم ورفضت طبعاً ! . . وقال لى سعيد فى رفق :

— هل أنت خائف ياحسين ؟

فلوح له سليمان بذراعه وصاح فيه :

— خائف ؟ . . حسين لايخاف . . ولكنى أعرف لماذا يبكى !

فعقد سعيد مابين حاجبيه وقال وكأنه يتذكر :

— آه . . بنت الشيخ صالح !

ثم رفع ذقنى بيده وقال لى فى عتاب :

— هل هذا كلام يارجل ؟ . . بنت لاتساوى (نكلة) تجعلك تبكى ؟ .. ألا تعرف أن فى بلدنا ألف واحدة أحسن منها مائة مرة ؟ !

* * *

وجاء صابر . . قال للزملاء إنه ذاهب إلى السوق لشراء أشياء تخصه . . ثم جلس بجوارى وقال لى فى همس عندما رأى عودة الزملاء إلى اللعب :

— تصور أن جميع الكبار فى القبيلة يعرفون باجتماع الحاج منازع وتدبيره ؟ !

قلت له فى دهشة :

— مستحيل !

قال وهو يقلب يديه فى استسلام :

— اتضح لى أنهم كانوا يعرفون — بالغريزة — أن الحاج منازع لن يسكت على هذا الأمر . . ولما عرفوا بخبر الاجتماع ونتيجته لزموا الصمت . . من كان له ابن مع العشرين شابا خاف أن يتكلم

كيلا يقال : (خاف على ابنه) . . والذى ليس له ولد فيهم حمد الله على أنهم لم يختاروا ابنه ولزم الصمت !

— وكيف عرفت ذلك !

— عرفته بعد أن تركتك مباشرة . . أيقظت أبى من نومه وأخبرته بالاجتماع فقال لى فى ثورة : « ألهذا أيقظتنى يابن الكلب ؟ . . مالك أنت ماداموا لم يختاروك ضمن العشرين ؟ »

ثم صمت صابر قليلا وقال :

— من الذى قال لأبى إنهم عشرون وأنهم لم يختارونى معهم ؟

— أنت طبعاً

— أبداً . . أنا لم أخبره بأمر العشرين . . قلت له فقط إن الحاج منازع يحرض الشبان على الذهاب إلى سوق البندر لضرب أحد رجال السبيل !

وسرحت بعيداً . .

ترى . . هل يعرف أبى أننى هنا ؟ . . مستحيل . . أبى لايحتمل هذا الموقف . . أنا أعرفه . . لاسيما إذا كان الأمر خاصا بى .. لكن .. ألا يحتمل أن يكون قد عرف وخاف أن يضعف أمامى إذا واجهنى ؟ . . هو لن يستطيع أن يمنعنى من الذهاب . . لايستطيع . . فهو يعرف ماوراء هذا من عار سيلاحقنا إلى الأبد . . إذن . . ربما هو عرف وآثر ألا يخبرنى بأنه عرف مادام ليس فى استطاعته أن يفعل شيئاً

لكن . . وأمى ؟ . . هل عرفت ؟ . . مستحيل . . حتى أبى لن يقول لها فى حالة علمه بخروجى . . هل نحن فى حاجة إلى فضائح فى النجع من امرأة تمسك بى فى حضنها وتولول فى هلع (ابعدوا عن ابنى . . ابعدوا عن ابنى ؟ !) . . هى لم تعرف ولن تعرف إلا بعد عودتى .

وقال لى صابر وهو يسند رأسه بيديه :

— ليتنى قضيت الإجازة بمصر واسترحت !

* * *

بعد نصف ساعة من وصول (صابر) جاءنا عبد الحفيظ — حلقة الاتصال — وهو يلهث . . قال لنا وهو يصرخ ويلوح بيديه :

— اهربوا . . اهربوا . . الأولاد ضربوا عمدة السبيل . . اهربوا حالا . . العساكر يملأون البندر . . وأهل السبيل يطحنون الحديد ويبحثون عن أهل بلدنا كالمجانين . . اهربوا حالا . . الدنيا مقلوبة !

ونظرنا — أربعتنا — إلى بعضنا فى ذهول . . ثم انطلقنا إلى البلد من أصعب الطرق وأوعرها فى سرعة شديدة أدهشتنى من نفسى !

* * *

(٨)

انقلب نجعنا رأسا على عقب . . نزل عليه خبر ضرب عمدة السبيل نزول الصاعقة . . لم يكن أحد يتخيل أن المضروب سيكون العمدة نفسه . . حتى الحاج منازع انزعج لهذا الأمر . . صاح فى الشبان الثلاثة الذين ضربوا العمدة — وكانوا قد وصلوا البلد بسلام :

— ألم تجدوا غير العمدة يابهائم ؟ !

وقال له أحد الشبان — وهو ابن أخيه محمد — يدافع عن نفسه فى خوف :

— طالت بنا الوقفة . . ولم يأت أحد (كبير) . . وجاء العمدة . . فقلنا لبعضنا نحن فى حاجة إلى (كبير) . . وهذا هو العمدة . . فهل فى السبيل كلها أكبر منه ؟ . . و . . و . . وضربنا !

وسألهم الحاج منازع وهو يبتلع ريقه فى صعوبة عن تفاصيل ضربهم له . . فقال محمد وهو يوجه نظرات خائفة إلى وجوه أبناء القبيلة الذين التفوا حوله :

— كان يركب حماره الأسود العالى . . ويحمل فى يده شمسية وعصا من الخيزران الغليظ . . وعرفناه بمجرد ظهوره . . وقلنا لأحمد الركابى (وهو شاب أحول العينين فى العشرين

من عمره) تقدم منه « وجر شكله » .. واختفينا نحن عن أعين العمدة .. فتقدم أحمد وضربه فوق الشمسية فطارت من يده . . واندهش العمدة . . فنزل من فوق الحمار . . وخلع الزعبوط فى سرعة وبقى بالقفطان الشاهى . . وأمسك بالعصا الخيزران مسكة دلت على أنه ماهر فى لعب العصا . . وخفنا على أحمد الركابى خصوصا أن العمدة طويل وصحته جيدة . . وفعلا . . لو تأخرنا قليلا لضاع أحمد الركابى . . العمدة لاعبه بالعصا وداوره ثم (خلف) له (خالفة) يعرفها لاعبو التحطيب فطار النبوت من يد أحمد . . وهجمنا عليه فى اللحظة التى طار فيها النبوت . . وخاف العمدة . . وصاح فينا بأعلى صوته وهو يبحث عن مكان يحمى فيه ظهره فلا يجد : « ماذا حدث ياأولاد ؟ . . ماذا حدث ؟ أنا عمدة السبيل يا أولاد . . أنتم تبحثون عن من ؟ » وأدركنا أحمد الركابى بعد أن أحضر نبوته . . ودرنا عليه . . وماهى إلا لحظات حتى سقط على الأرض . . فتركناه !

كان الحاج منازع يأكل شفته السفلى بأسنانه وهو يستمع إلى الشاب . . بينما ارتسم الحزن الشديد على وجه الشيخ طه فراج يهز رأسه هزات خفيفة تعبر عن خطورة الموقف . . وأبصار أبناء القبيلة معلقة فى دهشة بشفتى محمد . . فقال الحاج منازع يسأل الشاب فى تحذير :

— هل مسه أحدكم بعد أن سقط على الأرض ؟

وتردد محمد قليلا ثم قال :

— لا . . ولكن أحمد الركابى رآه يتحرك عندما هممنا بالانصراف فقال له : (ألم تمت بعد ؟ .) وضربه ضربة أخيرة .

وتحول الحاج إلى أحمد الركابى وقال له وهو يزمجر :

— أحقا يا ولد ؟

فقال أحمد الركابى يدافع عن نفسه فى حرارة :

— أنا لم أضربه والله إلا بعد أن رأيته يدخل يده فى جيب الصديرى . . خفت أن يكون معه (سلاح) فضربت يده !

وصمت الشاب — ولم يعلق الحاج . . وراح أبناء القبيلة ينظرون إلى بعضهم بعضا فى صمت . . كانت نظراتهم تقول (الأمر خطير) و(العواصف مقبلة) كان الإحساس العام هو أن الذى حدث ما كان يجب أن يحدث . . لأن السبيل لن تسكت على ضرب عمدتها وأن بلدتنا كلها معرضة للخطر . . وربما خافت قبائل بلدنا فى السبيل فتبرأت من الأمر فتكون قبيلتنا — وحدها — هى المعرضة للخطر . . راح أبناء قبيلتنا ينظرون إلى بعضهم فى ذهول ، والشبان الثلاثة يتطلعون إلى الوجوه فى خوف وكأنهم ينتظرون العقاب ، بينما راح الحاج منازع يرسم خطوطا ودوائر فى التراب بخيزرانته فى صمت أليم عميق . . وفجأة وصلت (منصورة) . . شقت الجموع فى لهفة إلى أن

وصلت إلى الحلقة التى يقف فيها الشبان الثلاثة . . نظرت إليهم وقالت تخاطبهم فى سعادة :

— أنتم ؟

ثم أطلقت زغرودة مجلجلة سمعها النجع كله . . وصاحت فى شاب صغير تبدو عليه البلاهة :

— يا ولد يا عبد الحارث . . اطلع فوق السقف وانزل جوالا من البلح وزعه على الناس !

وفتح عبد الحارث الجوال فوق سطح البيت ونثر ما فيه فى الساحة الواسعة ... وهجم الأطفال على البلح وهم يتصايحون فى سعادة!... وصاحت منصورة بعد أن أطلقت زغرودتها الثانية وهى تعانق الشبان الثلاثة الواحد بعد الآخر فى سعادة غامرة :

— غدا فى الصباح . . سأذهب إلى قبر جدى الشيخ فراج وأوزع عنده الكعك والترمس! . وقال لها زوجها — الشيخ درويش وهو ينهرها :

— إ اعقلى يا امرأة الله يلعن أبو اليوم الذى عرفتك فيه !.

فردت عليه وزغاريدها تنطلق بلا حساب :

— ملعون أبوه — اليوم — ألف مرة . . سأذهب غدا وأوزع الكعك والترمس رغم أنف (الجعيص) ! ... هذا يوم من الأيام

السعيدة التى كان يحبها الشيخ فراج . . شيخ العرب . . سيدك وسيد أبوك وسيد كل من يحامى لك !

فصرخ فيها الشيخ درويش :

— يا امرأة أهل السبيل لن يتركونا فى حالنا . . لو كان لك عقل فى رأسك لصرخت بدل أن تزغردى . . ياامرأة . . . الدنيا ستخرب والبلاد ستشتعل فيها النار . . يا امرأة لو أن أهل السبيل سمعوا بأننا نزغرد على ضرب عمدتهم لركبوا الخيل والجمال وحملوا السيوف والحراب وجاءونا ولا يعلم إلا الله بالذى يحصل . . إيا !

فردت عليه بزغرودة طويلة أكثر مما يجب . . وقالت له بعد أن فرغت منها :

— لتخرب البلاد ويحصل فيها ما يحصل . . أنا لا يهمنى السبيل ولا عشرة بلاد مثل السبيل . . .جدى الشيخ فراج الله يرحمه كان يحارب الحكومة . . . . . لكنك أنت تخاف من خيالك . . لو كانت قبيلتنا كلها مثلك لضعنا جميعا بلا دية ولا ثأر . . . فليأت أهل السبيل وليدعوا معهم كل البلاد التى تجاورهم .. أنا وحدى على استعداد لمقابلة قبيلة كاملة من قبائل السبيل .. سأقاتلهم بسيف الشيخ فراج .. شيخ العرب . . . الذى تتمنى من كل قلبك لو كان جدك . . لكن هذا بعيد عن عينك ! !

ثم التفتت إلى الشبان الثلاثة وقالت لهم وهى تبتسم :

— أنتم الثلاثة (معزومين) على العشاء عندى الليلة . . سأذبح لكم أكبر خروف عندى . . الخروف الأسود الذى به (نوارة) بيضاء فى ذيله . . . هاتوا معكم كل أصحابكم . . وإذا زاد عددكم قولوا لى . . كى أذبح لكم معه الخروف الأبيض !

فقال لها الشيخ درويش فى غيظ شديد :

— هل جننت يا امرأة ؟ . . ما هذه (الهيصة) التى تريدين عملها ؟ . . هه ؟

فردت عليه وهى تزمجر :

— ولا كلمة ! . . أنا ورثت عن أبى ثلاثة أفدنة . . بينما لم ترث أنت غير فدان واحد . . هل أنت ستذبح لهم الخرفان على حسابك ؟ ! . . هذا مالى وأنا حرة فيه . . ثم ما فائدة المال إن لم يخرج فى مثل هذا اليوم الذى مثل اللبن الحليب ؟ !

فقال لها الشيخ درويش وهو يكاد يجن من الغيظ . :

— يا امرأة أنا لا أتحدث عن المال . . ولكن أهل السبيل لو سمعوا بأشياء مثل هذه لاعتبروها قلة أدب من ناحيتنا ولزاد هذا من غيظهم . .

فقاطعته فى ثورة :

— لا تهددنى بأهل السبيل . . قلت لك أنا بنت الشيخ فراج . . لا يهمنى أحد . . لا بد من عمل (العزومة) للأولاد وليكن بعد ذلك ما يكون . . وإذا كنت تخاف من أهل السبيل فابحث لك عن بلد آخر . . وبعد أن تسمع بأن المعركة انتهت بيننا وبينهم تعال !

كان الحاج منازع ينظر إلى (منصورة) ويغالب ابتسامة تلح على غزو شفتيه . . ولجأ الشيخ درويش إليه فى فزع . . وقال له وهو يتردد فى مخاطبته :

— قل لها تصرف النظر عن حكاية (العزومة) يا حاج !

فقال لها الحاج منازع فى رفق :

— نحن نشكرك يا بنت العم .. لكن لا داعى (للعزومة) الآن !

فردت عليه فى صوت خافت وفى أدب شديد :

— أهذا كلام تقوله يا حاج ؟ . . أنت أيضا تخاف من أهل السبيل ؟

فقال لها فى حماس وكأنه يدافع عن نفسه :

— لا والله يا بنت العم . . نحن لا نخاف من أحد . . ولكننا نخاف من كلام الناس فى البلاد الأخرى إذا سمعوا بأننا (نهيص) بعد ضربنا للعمدة . . أما عن أهل السبيل فإننا سنجاملهم بقدر الإمكان

بمنع أى (تهييص) . . فإذا عالجوا الأمر بعقل ووافقوا على الصلح كان بها . . أما إذا ركبوا رءوسهم واستعدوا للقتال فسأطلب من كل نساء النجع أن تزغرد . . وسأحضر الطبل والزمر فى يوم (عزومتك) وسأكون أول من يحضرها . . أما الآن فلا داعى لما تريدين عمله يا بنت العم .

ووافقته منصورة بقولها :

— أمرك يا حاج . . ما دام هذا رأيك فلا داعى للعزومة .

لكنها التفتت إلى الشيخ درويش وقالت وهى تهم بالانصراف :

— كله منك يا راجل يا ناقص . . ظللت ترتعد من الخوف حتى انتقلت العدوى إلى القبيلة كلها . . رحت تقول وتعيد عن السبيل وأهل السبيل والسيوف والحراب حتى أخذت القبيلة . . الله يرحم جدى الشيخ فراج . . كان يقول :

(لا تشاوروا الجبان . . لأنه لا يتخيل غير الهزائم) . . كأنه كان يقصدك عندما قال هذه الكلمة . . اقعد إنت يا ناقص وارتعش وتفنن فى الحكايات التى تخيف الناس !

ونظر الشيخ درويش إلى من يجاوره وقال له :

— سامع ؟ . . كل النساء (عاقلات) فى بيوتهن إلا هذه . . ربنا ابتلانى بها لترينى النجوم فى عز الظهر . . البلاوى لها الصبر !

* * *

واعتقل البوليس الشبان الثلاثة بعد أن أعطى العمدة المضروب أوصافهم . . وهناك اعترفوا بأنهم ضربوه أخذا بالثأر . . ولم تكن إصابته خطيرة لحسن الحظ . . وتحولت خيمتنا إلى خلية نحل ، بعد أن جاءها الكثيرون من أبناء القبائل الأخرى يسألون عما حدث فى مجاملات تقليدية . . لكن الذهول كان يطل من أعينهم لمركز المضروب الكبير .. وكأن لسان حالهم يقول :

(أضعتم أنفسكم وأضعتمونا معكم !) . . وتحولت بيوت الشبان الثلاثة إلى مآتم صامته . . كل أسرة تجمعت فى بيتها لترد على مواساة المواسين . . ولكن صمت وهدوء وفى محاولات جبارة لإخفاء الحزن لكيلا يؤخذ ضدها فى مناخرات المستقبل ! وتشاور كبار السن فى قبيلتنا طويلا . . كانت لقاءاتهم الثنائية والثلاثية مستمرة طوال اليوم . . يتحدثون تارة عن هجوم منتظر من قبل السبيل . . وتارة أخرى عن واجبهم نحو الشبان الثلاثة . . كانوا يتوقعون أن تتخلى بقية قبائل بلدنا عنا بأن ترسل كل قبيلة رسولا إلى عمدة السبيل وقبيلته تتبرأ فيه عما حدث للعمدة . . فيشجع هذا أهل السبيل فيقومون بهجوم خاطف . . وساد التوتر .

* * *

(٩)

اتصلت بنا أكثر قبائل بلدنا وأبدت استعدادها للقتال معنا . .

وقال لى الشيخ درويش وهو يشمر عن يديه ويحمل نبوته :

— الخوف ليس من أهل السبيل يا حسين يا بنى . . الخوف من قبيلة الكواسر قلت له متسائلا فى دهشة :

— الكواسر ؟

قال وهو يضرب نبوته ضربات خفيفة على الأرض ليتأكد من سلامته :

— نعم . . أنت لا تعرفهم . . قبيلة كبيرة متوحشة تسكن فى قرية صغيرة فى أعماق الصحراء الشرقية . . وتمت لقبيلة عمدة السبيل بصلة القربى . . هذه القبيلة تحب القتال كما نحب نحن شرب الشاى . . . وكان عمدة السبيل القديم يسلطها على أعدائه فتؤدبهم له . . وفى الزمن القديم سلطها على نجع (التغالب) فجالت فيه بخيولها وفرسانها وبعد أن ضربت كل من فيه (علقة) ساخنة . . حطمت عند انصرافها كل أبواب البيوت !

— ولماذا الأبوب ؟

— تحطيم الأبواب معناه الإهانة الشديدة التي ما بعدها ! إهانة .

ثم استطرد في انزعاج :

— ربنا يحمينا . . أنا جسمي يقشعر والله . . عملها الحاج منازع الله يخرب بيته . . البلاوى لها الصبر .

وكنت أسير في اتجاه بيتنا . . لإحضار نبوتي . . وسار الشيخ درويش بجواري . . وفي الدرب الصغير الذى يبدأ من الساحة ليؤدي إلى المنطقة التي يسكنها فرع (الغنادير) — فرعنا — التقينا بصابر قادما من بيتهم يحمل نبوته . . قال لنا بمجرد أن رآنا :

— بلغني أن الشيخ طه يوزع الأسلحة النارية على بعض أفراد القبيلة .

فقلت له في انزعاج :

— هل ستستعمل (النار) في القتال ؟

قال صابر وهو يشمر عن ذراعيه :

— لا . . هو جمعها من أصحابها ووزعها من جديد على الأفراد (العاقلين) . . ورجاهم ألا يستعملوها إلا إذا أمرهم ! !

فهز الشيخ درويش رأسه فى أسف وقال :

— هذه أول مرة تظهر فيها الأسلحة النارية فى بلدنا . . ستصبح مثل بلاد الصعيد (البحرية) . . انتهت (حروب الشجاعة) لتبدأ الحروب التى يختفى فيها الرجل خاف بندقية . . البلاوى لها الصبر !

ثم تربع على الأرض أمام بيت صابر وشدنى من ثوبى قائلا :

— اقعد يا حسين يا بنى (ثم وهو يشير إلى الأرض) منها وإليها .

فتربعت على الأرض فى مواجهته . . وقال لصابر :

— اعمل لنا براد شاى يا سيد عمك . . أنا جسمى يحس أن هذا آخر يوم لى فى الدنيا . . . يجب أن يموت الواحد وهو (متكيف !) . . وهات معك « نبوت » لحسين !

ودخل صابر ليذبه على الشاى . وقال الشيخ درويش وهو يرسم عدة خطوط على الأرض بأصبعه :

— الحاج منازع ربنا رزقه بسبع بنات . . أحلى ما فيهن تقطع الحميرة من البيت . . زوج منهن أربعة لجماعة لا يملك الواحد منهم أكثر من ثلاثة قراريط . . ومع ذلك . . فقد رضى بالغلب والغلب لم يرض . . طلقوهن له الواحدة بعد الأخرى . . إنهن الآن فى بيت أبيهن . . كلما فتح باب بيته ورآهن تركبه عفاريت الدنيا . . فيخرج (ليفتح) لنا (شكلة) ! !

وخرج صابر يحمل فى يده نبوتا — وكان قد ترك نبوته بجوارنا ناولنى النبوت الحديد قائلا :

— خذ يا حسين . .

وتناولت منه النبوت . . وثنيته قليلا للتأكد من مرونته . . فقال الشيخ درويش :

— فى الوقت متسع . . لن يحضر أهل السبيل قبل ساعتين . . وبعض أولادنا يراقبون الطريق عند (الحدود) الآن . .

فقال له صابر :

— ألم تقل إنهم سيركبون الخيل ؟ . . سيصلون هنا بعد دقائق . . أليس كذلك ؟

فقال الشيخ درويش وهو يرفع رأسه إليه :

— أظنك (خائف) على براد الشاى ؟ ! . .

ثم استطرد لما رأى صابر يبتسم :

— اجلس يا صابر . . الذين يركبون الخيل سيسيرون على مهل مع الذين يسيرون على الأقدام . . لن يصلوا قبل أن نشرب الشاى .

وجلس صابر . . وفجأة هل علينا الشيخ طه من درب جانبى . . كان يتوكأ على عكازته وقد اكتست تجاعيد وجهه بالهم الشديد . . وظهر خلفه زهاء عشرة رجال فى نحو الأربعين من أعمارهم . . بعضهم

يعلق البنادق على كتفه وبعضهم يعبث بمسدسات بإدارة (ساقيتها) وتنظيفها . . وقفنا لهم بمجرد ظهورهم . . وصرخ فيهم صابر بلهجة خطابية تقليدية :

— تفضلوا يا عرب . . تفضلوا

وسرت همهماتهم دون أن يتوقفوا :

— يزيد فضلك . .

وبعد أن ساروا عدة خطوات توقف الشيخ طه واستدار ناحيتنا وقال :

— لا تتأخروا عندكم . . وتعالوا إلى الساحة يا أولاد !

فرددنا فى نفس واحد :

— حاضر

وجلسنا بعد أن واصل الشيخ طه سيره . . وقال الشيخ درويش :

— الشيخ طه (زعلان) . . وهو مثلنا . . وجد نفسه أمام الأمر الواقع . . فتحها الحاج منازع فتح الله رأسه ورأس كل (القواسم) . .

فقال صابر للشيخ درويش وكأنه تذكر شيئا :

— قل لى يا شيخ درويش . . هل من رأيك أن القواسم هم سبب كل المشاكل التى تتعرض لها قبيلتنا ؟

. قال ذلك . . ثم نظر إلى . . فقال الشيخ درويش فى ثورة :

— الله يلعنهم جميعا . . المجانين أولاد المجانين . . لولا القواسم لكانت قبيلتنا (أطيب) قبيلة فى الدنيا . . القواسم هؤلاء يا أولاد — — عليهم (دعوة) من سيدنا الخضر . . . فى إحدى المرات جاء سيدنا الخضر متخميا فى ثياب الشحاذين . . هذا الكلام زمان يا أولاد . . وكان جدنا الكبير (يقصد رأس قبيلتنا) متزوجا من ثلاث نساء . . أم غندور (وهو جدنا) وأم قاسم (جد القواسم) وأم هندى (جد الهنادى) . . فذهب سيدنا الخضر إلى جدتنا فأعطته (ديك رومى) فدعا لها بالخير الكثير . . وذهب إلى أم هندى فأعطته دجاجة فدعا لها بالخير القليل ! . . وذهب إلى أم قاسم فطردته شر طرده . . فقال لها (روحى . . ربنا يرزقك بذرية كلها مجانين) !. . . من أجل ذلك جاء القواسم كلهم من المجانين ! !

ولما رآنا نضحك قال لنا فى عجب :

— ألا تصدقون ؟ . . عيبكم الوحيد أنكم تستهترون بالتاريخ القديم . . لكن والله العظيم هذا حدث فعلا .

ثم استطرد يعزز حجته :

— لو لم تنجب (أم قاسم) غير (منصورة) وحدها لكان فى هذا الكفاية . . .

وأحضر صابر براد الشاى على صينية صغيرة وضعها على الأرض وراح يصب الشاى فى الأكواب الصغيرة . . واقترب منا شاب فى حوالى العشرين من عمره من فرعنا اسمه (إدريس) عرف بظرفه وخفة روحه . . كان يحمل نبوته تحت إبطه . . ويمد ذراعيه إلى الأمام وقد انهمك فى تنظيفهما من الطين العالق بهما . . تربع على الأرض بجوارنا . . ومد يده إلى البراد وراح يصب لنفسه الشاى دون أن يلقى بالسلام . . وأشار الشيخ درويش إلى الطين فى ذراعيه وسأله : ما هذا ؟

قال إدريس بعد أن ارتشف رشفة :

— الشيخ حمد . . شيلنا الطين !

ولما رآنا ننظر إليه فى استفسار استطرد وهو يرتشف الشاى فى تلذذ :

— جمع عشرة شبان — وأنا منهم — وأمرنا أن نطلق قنوات المياه حول النجع ليرغم أهل السبيل على الدخول من طريق واحد . . . يعنى — قال — فتح الطوفان !

فقال الشيخ درويش فى انزعاج :

— أغرقها ؟ . . (ثم وهو يضرب كفا بكف) ضاعت زراعتنا . . عليه العوض فى الفدان !

ثم رفع يديه إلى أعلى وقال فى حرقه :

— الله يخرب بيتك (يا عجل) . . الآن ستتحكم فىّ منصورة أكثر وأكثر . . أرضها بعيدة عن النجع . وستنفق علينا طوال هذا (الموسم) . . البلاوى لها الصبر !

فقال له صابر مداعبا :

— الأمم تضحى باقتصادياتها فى حالات التعبئة العامة يا شيخ درويش !

فلوح له بيده قائلا فى ضيق :

— لا تكلمنى (بالنحوى) من فضلك . . كلمنى عربى ! !

ثم استطرد فى أسف وهو يسند رأسه على راحته :

— الذى يده فى الماء .. ليس مثل الذى يده تحت أنياب منصورة !

وضج صابر وإدريس بالضحك . . ولم أضحك معهما . . كانت تنتابنى شتى المشاعر . . خيل إلى أننى أرى (بدوية) أمامى . . كانت ملامحها الدقيقة تعبر عن الحزن والأسى . . لم تكن تبتسم كعادتها . . هذه أول مرة أرى على وجهها علامات الانكسار . . قالت لى متسائلة وصوتها يتهدج :

— خلاص ؟ ! . . انتهى ما بيننا ؟ . . ضاعت أحلامنا ؟

فقلت لها وصوتى يتحشرج :

— ضاعت !

وتنبهت على صوت الشيخ درويش يسألنى فى دهشة :

— ما هذه التى (ضاعت) ؟ !

وارتج على . . فقلت له فى لعثمة ظاهرة :

— لا . . أنا . . . أقصد . . أريد أن أقول أن الـ . . !

ولم أجد ما أقوله . . فضرب كفا بكف وقال فى أسى :

— حتى (العيال) ركبهم الهم وصاروا يكلمون أنفسهم بلا وعى.. البلاوى لها الصبر !

وتنبه صابر إلى ما يجول بداخلى . . فحدق فى وجهى طويلا ولكنه لم يتكلم . . ابتلع حزنه فى صمت وأطرق برأسه كأنه يلوم نفسه على مشاركتهم الضحك . . وقال إدريس وهو يضطجع على جدار آيل للسقوط :

— أنا فرحان جدا ! . . هذه أول مرة سأدخل فيها (شكلة) على نطاق واسع . . سأتعلم فيها القتال على أصوله الصحيحه ! !

فقال له الشيخ درويش فى اشمئزاز :

— افرح ! . . لو كانت (منصورة) من نصيبك لكرهت الدنيا وما فيها ! ! . .

وابتسمت رغما عنى . . وقهقه صابر بصوت عال . . وسمعنا طلقة نارية آتية من عند الساحة . . وأرهفنا الآذان . . ثم انطلقت عدة أعيرة نارية . . وما لبث أن انطلق الرصاص بلا حساب الأمر الذى أزعج الحمام (الجبلى) فطار من أبراج النجع فى فزع شديد . . وهرولنا إلى الساحة . . كانت مشاعرى مختلطة تمام الاختلاط . . كنت أسائل نفسى . . هل أقاتل أهل السبيل إن حضروا اليوم ؟ فأجيب (نعم) . . لا بد من ذلك . . فأسائلها مرة أخرى حتى ولو كان الشيخ صالح فى المقدمة ؟ . . ولا أجد الجواب . . ووصلنا الساحة . . ورأينا الهرج والمرج . . كل أبناء القبيلة يتحزمون بالعمائم ويتأهبون للقتال . . والذين يحملون البنادق والمسدسات يطلقونها فى الهواء . . وسألت سعيدا (زميلى فى الرباط)

— ماذا حدث ؟ . . هل جاء أهل السبيل ؟

فقال وهو يشد العمامة على خصره :

— نعم . . رآهم أحد (الأولاد) يزحفون علينا فى صفوف متراصة لا أول لها ولا آخر . . والشيخ طه قال لحملة البنادق أطلقوها فى الهواء ربما تراجعوا إذا عرفوا أننا سنستعمل (النار) !

ودق قلبى بعنف . . ورحت أدور حول نفسى كالمقطوع الرأس . . ولمحنى الحاج منازع . . فقال لى فى استياء وفى لهجة آمرة :

— تحزم بعمامتك يا ولد !

ولم أستجب له . . فرمقنى بنظرة نارية . . وحانت منه التفاتة فرأى صابرا والشيخ درويش فصرخ فيهما :

— تحزما بالعمائم يا بهائم ! !

وظهر الغضب على وجه صابر . ولكنه لم يتكلم . . كما لم ينفذ أوامره . . بينما شد الشيخ درويش العمامة على خصره وهو يتمتم :

— (البلاوى لها الصبر) !

وزحف الجميع فى اتجاه الطريق الوحيد الذى لم تغرقه المياه . وكانت بعض قبائل بلدنا قد انضمت إلينا . . وراعنى النظام الدقيق الذى يسيرون عليه . . كل اثنين يسيران بجوار بعضهما — مهاجم ومدافع . — بعد أن اختار كل زميله . . وقال لى صابر وهو يشير إلى النبابيت الغزيرة الموضوعة على الأكتاف

— قومنا محاربون بالغريزة . . قرأت مرة أن قبائل منطقتنا كانت على رأس القبائل العربية التى تصدت للظاهر (بيبرس) فى معركة فاصلة عند محافظة (المنيا) . . لو انتصروا فى هذه المعركة لتغير وجه التاريخ فى مصر . . ولما سمعنا عن ما يسمونهم (بالمماليك) . . لكنهم هزموا هزيمة منكرة . . وراح (بيبرس) يطاردهم فى طول الصعيد إلى أن استقر بعضهم فى (أسوان) وفر الباقون إلى السودان

فنظر إليه الشيخ درويش فى اشمئزاز وقال :

— نحن فى غاية الكرب الآن . . وأنت (قاعد) تكلمنا (بالنحوى) (البلاوى لها الصبر) ! .

ما كاد أبناء القبيلة يأخذون (مواقعهم) حتى جاءت الأخبار عن طريق الشبان الذين يراقبون (الحدود) بأن أهل السبيل لم يتحركوا . . ولكن الذين تحركوا هم أهل قرية (العمارية) – قرية الشيخ موسى الكاظم – بأمر الشيخ نفسه . . ومن بعيد رأيناهم يسدون الأفق برجالهم فى صف طويل – على عرض بلدنا – على الجسر الذى يفصل قريتنا عن السبيل . . وقد ركب بعضهم الخيل وربط العمائم فى النبابيت ورفعها إلى أعلى كأنها الرايات البيضاء دلالة على أن هدفهم هو منع القتال بين الفريقين . . منظر مألوف يتكرر كثيرا على مستوى القرى والقبائل . . وعادت الابتسامات إلى الوجوه . . وقال الشيخ درويش فى فرح ظاهر :

– اللهم لك الحمد والشكر . . لولا (العمارية) لضعنا فى شربة ماء . . ماذا تفعل قبيلة من ثلثمائة (نفر) أمام قرية كبيرة مثل السبيل ؟

وسمعه الحاج منازع . . فزأر فيه بقوة :

– اخرس ! . . العبرة ليست بالعدد يا ثعلب ! !

وانتفض الشيخ درويش . . وقال فى صوت هامس مستسلم :

– خرسنا !

لكنه التفت ناحية صابر وقال له :

– ربنا يعوضكم فى السبع فدادين . . (ثم لى) ويعوضكم فى العشر فدادين . . العمارية منعوا القتال حقا . . لكنهم سحقوا زراعتكم عند أ

الجسر بخيلهم وجمالهم ورجالهم . . أنا ستنفق على (منصورة) وعلى عيالى فى الشهور القادمة . . وأنتم من أين ستأكلون ؟ !

وانزعجت لكلمته . . لكننى تعلقت بأمل أن تكون(العمارية) قد تجنبت الحقول بقدر الإمكان لقرب الجسر الكبير منها . . وقال الشيخ درويش وهو يشير إلى فرسان العمارية من بعيد :

— أهل السبيل لا يستطيعون التقدم الآن . . هذا معناه إهانة العمارية التى عبرت النيل من الشاطىء الغربى لمنع نشوب القتال . . (ثم وهو يخفض صوته لكيلا يسمعه الحاج منازع) اللهم لك الحمد والشكر !

ويبدو أن الصحراء الواسعة — شرق القرى — أعجبت بعض الشبان من فرسان العمارية . . فراحوا يجرون فيها بخيولهم بلا هدف . . فأشار إليهم صابر وقال لى :

— ألم أقل لك إن قومنا محاربون بالغريزة ؟ . . لقد قرأت مرة أنهم بالتضامن مع قبائل (الهوارة) فى شمال الصعيد فصلوا الصعيد كله وأعلنوا استقلاله عن الحاكم المملوكى فى الشمال . . إننا فى حاجة إلى من يكتب تاريخنا من جديد . . فأنا لا أتصور أن الصعيد قد خضع بسهولة إلى أولئك الأفاقين الذين جلبوا من كل بلاد العالم . . مستحيل أن

أصدق . . فقد قيل مثلا فى عبارة موجزة عن معركتهم مع (بيبرس) « كان العرب يزيدون على المائة وعشرين ألف مقاتل . . وعلى رأسهم قبائل الجعافرة وعرب جهينة . . وبدأت المعركة كنهاية للصراع بين العنصرين التركى والعربى . . من ينتصر فيها . . ساد مصر .

وصمت صابر قليلا ثم استطرد :

— عدة أسطر كما ترى لا تشفى الغليل . . لم يحدثنا أحد عما حدث قبل هذه المعركة . . أو ما حدث بعدها . . كل الذى أعرفه أن قومنا بعد هزيمتهم راحو يتنقلون فى الصحارى إلى ما يقرب من قرن من الزمان . . تهددهم مطاردات المماليك . . وتفشى فيهم الجهل بشكل مريع . . ثم احترفوا الزراعة فى هذه المنطقة (الآمنة) . . ولولا الدين . . والاعتزاز بالنسب لما كان هناك فرق بينهم وبين المتوحشين !

ونظر إليه الشيخ درويش فى دهشة وقال :

— وحوش ؟ . . نحن وحوش يا ولد ؟

ثم ملتفتا إلى فى تساؤل :

— ماذا يقول هذا الولد يا حسين يا بنى ؟

قلت له وأنا أغالب الابتسام :

— يقول إن (جماعتنا) يجب أن يحكموا مصر ! !

فضرب الشيخ درويش كفا بكف وقال :

— نحن نقول (يارب يا ساتر) من أن تهجم علينا السبيل . . وهذا الولد يريدنا أن نحكم (مصر) . . كلام (نحوى) كله (هَجْص) . . (البلاوى لها الصبر .) .

* * *

(١٠)

رفرف السلام على النجع بعد أن جاءت الأخبار بأن شيوخ العمارية سعوا إلى أهل السبيل وأخذوا عليهم العهود والمواثيق بالعدول عن القتال . . وعادت الحياة إلى ما كانت عليه . . وفى المساء زارنا العمدة . . عمدتنا . . ومعه بعض الشيوخ من أبناء قبيلته . . وكان غاضبا أشد الغضب . . جلس على أحد الأسرّة فى صمت . . لكنه كان قلقا فى جلسته . . مرة يفرك يديه . . ومرة يمسك بطرف عباءته ويعصرها بشدة . . ومرة يثنى خيزرانته بين يديه حتى ليوشك أن يكسرها . . ومرة يضرب على ركبتيه فى عصبية . . ولم استطع أن أخمن سر غضبه . . هل بسبب المعركة . . أم احتجاجا على ضرب العمدة كسابقة خطيرة فى نظره ؟ وأخرجنى من حيرتى عندما التفت إلى الحاج منازع وقال له فى حدّة :

— لم (فتحت) هذه الفاتحة ؟

فقال له الحاج فى هدوء عجيب :

— عم تتكلم ؟ !

فالتفت العمدة إلى الشيخ طه وقال له فى عصبية :

— الدنيا مقلوبة يا شيخ طه والبلاد ستقع فى بعضها . . و(جناب) الحاج لا يعرف عمّ اتكلم !

ثم التفت إلى الحاج منازع وقال له بنفس الحدة :

— ألا تعلم بأن قبيلة (الكواسر) بمجرد أن سمعت بضرب العمدة أخرجت طبلها ودقت عليه دقة الحرب . . والتفت حولها كل قبائل السبيل وكادوا يهجمون علينا لولا أن الله سلم ؟ . . ألا تعلم هذا يا(جناب) الحاج ؟ !

فقال الحاج وهو يكظم غيظه :

— كنت أتوقع هذا . . وأستعد له . . ومن يدخل نجعى سأعلمه كيف يكون القتال !

فقال العمدة فى غضب :

— إذن . . أنت تعلم نتيجة (الفاتحة) التى فتحتها !

فرد الحاج منازع :

— أنا لا (أفتح) . . ولكننى (أسد) مايفتحه غيرى . . فالذين ضربوا (عامر) . . ضربوه لأن بعض الشبان من بلدنا صفعوا شخصا من السبيل . . هؤلاء الشبان اتضح أنهم من قبيلتكم . . لذلك فأنتم الذين (فتحتموها) ونحن الذين (سددناها) ! !

وازداد غضب العمدة . . فقال بصوت عال :

— هل معنى هذا أن تضربوا عمدة من أجل (ولد) لا قيمة له ؟ !

وفقد الحاج منازع أعصابه .. فقال له فى حدّة :

— احفظ لسانك ! .. لاتنس أن (عامر) من الخوالد .. وأصغر صغير فى الخوالد .. أعظم من أكبر عمدة !! .. وأنا سأتحملك لأنك ضيفنا .. ولأجل خاطر مشايخ العرب الذين معك !!..

وسكت العمدة .. ووقف الشيخ علوان — قريب العمدة — اتكأ على عصاه وكأنه يستعد للخطابة .. وعقد ما بين حاجبيه الأشيبين وقال :

— ملعون أبو أكبر (جعيص) فى السبيل ! .. العمدة ضرب وانتهى الأمر .. فلماذا تتعاركون ؟

فصاح فيه العمدة — وكان يجلس بجواره — فى عتاب :

— أهذا كلام تقوله ياشيخ علوان ؟ .. ألم تسمع ما قاله أهل السبيل بعد أن عدلوا عن الهجوم ؟

فرد عليه الشيخ علوان وهو لا يزال واقفا :

— لاتهتم لما قالوه .. هذا بعيد عن عينهم !

ثم التفت إلى أبناء قبيلتنا وقال بطريقة خطابية :

— أنا بالنيابة عن نفسى وعن كل بلدنا .. أشكر الخوالد على هذه (الخدمة) التى أدوها للبلد .. ونرجو من الله أن يرزقهم بالصحة

والعافية ليكثروا لنا من هذه (الخدمات) التى يحبها الله ورسوله وأولياء الله الصالحين ! !

فصرخ فيه العمدة وهو يشد ثوبه فى حركات عصبية :

ـــ اقعد . . أقعد ياراجل اقعد . . كبرت وخرفت !

فالتفت إليه الشيخ علوان وقال فيما يشبه الرجاء :

ـــ اتركنى أكمل كلامى والله ياعمدة . .

فجذب العمدة ثوبه بقوة ، فجلس الشيخ علوان مكرها . . وقال مكملا خطبته وهو يهم بالجلوس ويلوح بيده :

ـــ خلاصة الكلام ياجماعة : ملعون أبو (أجعص) من فى السبيل ! !

وبعد قليل انصرف العمدة دون أن يشرب القهوة . . وقال لنا الشيخ درويش بعد انصرافه :

ـــ عمدتنا معذور فى غضبه . . فمادام أهل السبيل قد عدلوا عن الهجوم . . فمنى هذا أنهم سيثأرون لعمدتهم من رجل واحد . . والعمدة طبعا لا (يسد) فيه إلا عمدة مثله . . الحكاية انتهت إلى أن أهل السبيل سيضربون عمدتنا . . الرجل معذور ياجماعة إذا رفض القهوة وتململ فى جلسته . . معذور والله . . وقع فى ورطة .. المسكين .. البلاوى لها الصبر !

فى صباح اليوم التالى انتهى كل مظهر من مظاهر القتال فى النجع . . ذهب الجميع إلى الحقول ولم يبق فى النجع غير الكبار فى السن أو من ينوب أبناؤهم عنهم . . وسرت الطمأنينة عندما علم الجميع أن أهل (العمارية) تجنبوا إتلاف الحقول بقدر الإمكان . . وفى الضحى زارنا الصديق هاشم . . ابن عمدتنا . . دخل النجع — ومعه عدة شبان فى مثل سنه — بموكب أنيق يليق بمقام ولى عهد المملكة — على حد تعبيره — ولم يجلس فى الساحة التى يجلس فيها البعض من كبار السن . . دخل ومن معه إلى داخل الخيمة . . وما أن جلس حتى التفتنا حوله — نحن الشبان — نسأله عن (الأخبار) . . فتربع على سرير الحبال — على طريقة أبيه — وقال فى كبرياء مصطنعة :

— هاتواالشاى الذى اشتهرت به بنات الخوالد الجميلات . .أولا !

وانطلق عدة غلمان يقفزون فى سعادة لأنهم سيحضرون القهوة لهاشم المحبوب من شبان قبيلتنا . . بينما قال له صابر فى مزاح الصديق :

— هل (تبصبص) لبناتنا يابن (العبيط) ؟ ! !

فرد هاشم فى مرح :

— ميزتكم الوحيدة فى الدنيا أن بناتكم جميلات ! ! الواحدة منهن — لاسيما السمراوات — خدها ناعم مثل الحرير ، وعيونها مثل عيون الغزال !

ثم أشار إلى وقال وهو يضحك :

— حتى خطيبتك التى مثل البوصة ليس فيها غير الخد الناعم والعيون الجميلة . . كأنها تقلد بنات الخوالد لطول عشرتها لهن !

ويبدو أنه أحس بأنه يسبب لى المسا بإشارته إلى بدوية . . فاستدرك قائلا محاولا أن يغطى على إشارته بالمرح :

— هذه هى ميزتكم الوحيدة . . أما رجالكم . . فالواحد منهم مثل الضبع والعياذ بالله . . إذا تكلم أحدهم معك فى ود خيل إليك أنه سيقاتلك . . ربنا يحمينا بحماه !

فقلت له :

— دعنا من هذا الآن . . ما هى الأخبار ؟

فقال وهو يعدل من وضع عمامته الفخمة . . ويكسى وجهه بالجد :

— صلوا على النبى . .

واشرأبت إليه الأعناق . . بينما راحت الشفاه تتمتم : « اللهم صلى عليه » .

فقال وهو يتكئ بذراعه على مسند صغير :

— هاتوا الشاى أولا !

فقال صابر فى ضيق . . ولكن فى مزاح . . وهو يشير إلى هاشم . . مخاطبا شبان القبيلة :

— احملوا ابن (العبيط) هذا واقذفوا به خارج النجع .

فقال هاشم فى ثورة مصطنعة :

— تقدر ؟ ! (ثم وهو يخفض صوته لكيلا يسمعه الكبار فى الخارج) :

— لا أنت ولا كل قبيلتك تجرؤ على ذلك . . أنا ليس بالشخص العادى يابنى . . أنا إذا غضبت لأمر ما . . غضبت من أجلى خمسمائة نبوت دون أن تسألنى لماذا غضبت . . (ثم وهو يضرب صدره) أنا عمدة ابن عمدة وكان جدى أيضا عمدة . . نحن ناس من أهل (الحفظ) . .

فقال له صابر وهو يضحك :

— نحن الآن اعتدنا على ضرب العمد . . الدور القادم عليك إن شاء الله . .

وانفجر الجميع فى ضحك عال تردد صداه فى الخيمة كلها . . وسمعنا صوت الحاج منازع — خارج الخيمة — يصرخ فى احتجاج غاضب :

— عجائب !

وخرست ألسنتنا . . رحنا ننظر إلى بعضنا فى ذهول باسم . . راح هاشم ينفض يده فى حركات سريعة كأنما أبعدها لتوه عن جمرة . . بينما وضع يده الأخرى على فمه ليكتم ضحكته .

ودخل الغلمان يحملون صوانى القهوة . . فأشار هاشم إليهم وقال :

— الحمد لله . . هاقد نفذت كلامى . . الآن فقط . . اسألونى عن الأخبار !

ثم استطرد وهو يرتشف الشاى :

— بمجرد أن ضرب عمدة السبيل . . اهتزت الدنيا كلها . . جناب مدير المديرية اتصل شخصيا بالمركز . . وقال لا بد من القبض على الضاربين فورا . واتخاذ احتياطات مشددة للحيلولة دون اصطدام البلدين . . وفى نفس الوقت طلب المحافظة على الضاربين خوف الاعتداء عليهم وتعقد الأمور . . وأرسل كل ضباط وعساكر المديرية إلى مركزنا باللنشات . . لكن ماذا تستطيع عساكر المديرية أن تفعل لو حدث الصدام ؟ ! ! أهل السبيل اجتمعوا كلهم . . وقرروا هدم بلدنا على من فيها . . لكن كبار السن منهم منعوهم بالقوة . . حتى العمدة نفسه رفض فكرة القتال . . ثم وصل شيوخ العمارية وهدأوا الأمور أكثر . . وبعد أن هدأت السبيل . . وصل الخبر إلى قبيلة الكواسر — بنت الكلب ! — فأخرجت طبلها القديم ودقت عليه دقة الحرب . . وأخرج شيخها — المجنون ! — الراية الحمراء

القديمة التى يقول إن جده كان يحملها عندما حارب الأتراك . . وحملوا جميعا النبابيت والسيوف والحراب والدرق . . وركب أكثرهم الخيل والجمال . . وخرجوا من بلدتهم — وقد وضعوا الطبل فوق أحد الجمال وراح أحدهم يدق عليه! — واتجهوا إلى السبيل وشيخهم يتقدمهم فوق حصانه . . يهز الراية ويتطلع إليها ويقول : « البلاد لا تتسع لنا نحن والخوالد . . إما نحن وإما هم » !

فقاطعه سعيد — زميلى فى الرباط — وقال فى حماس :

— لو جاءونا وحدهم لنتفنا لشيخهم ذقنه .

فقال هاشم فى مزاح :

— ليتهم جاءوا . . على الأقل كانوا (مسحوا) الخوالد من الوجود لنرتاح من المشاكل .

فقال سعيد فى خشونة :

— لولا الخوالد لكانت بلدنا حتى الآن تابعة لعمودية السبيل .

فقال هاشم فى امعتاض . . وإن حاول إخفاءه :

— لماذا ؟ . . وأين ذهبنا نحن إذن ؟

فقال سعيد بنفس اللهجة الخشنة :

— هذا ليس كلامى . . ألم يقل أبوك فى إحدى المرات : حصانى يصهل على (حس) الخوالد ؟ !

امتعض هاشم . . فقلت لسعيد وأنا أتدارك الموقف :

— عمدتنا قالها للمجاملة ياسعيد . . خصوصا وأنه يحب الحوالد .

وعاد هاشم إلى مرحه . . فقال وهو يناول أحد الغلمان كوب الشاى الفارغة :

— خذ يابنى . . قطيعة تقطع الحوالد ومعرفتهم .

وسأله صابر فى اهتمام :

— ثم ماذا حدث ؟

واستطرد هاشم مكملا :

— ولما وصلت قبيلة الكواسر إلى السبيل . . وقفت فى أكبر ساحة هناك ودقت طبلها فى عنف تدعو قبائل السبيل للحرب . . وفعلا . . هاج الشبان هياجا شديدا . . فركبوا الخيل والجمال وحملوا النبابيت والسيوف وانضموا إليهم . . لكن العمدة وكبار السن فى السبيل حاولوا إقناع شيخ الكواسر بشتى الطرق أنهم قرأوا (الفاتحة) مع شيوخ (العمارية) فلم يقتنع . . وطلبوا منهم أن يعودوا إلى بلدهم . . ولكنه صمم على القتال . . فقال له شيوخ السبيل « هم ضربوا عمدتنا . . ونحن سنضرب عمدتهم » . . لكنه أصر على رأيه . . فطلب منه العمدة أن ينزل بقبيلته ليشربوا القهوة ريثما يجهز لهم الغذاء . . فصمم على أن يكون الغذاء بعد العودة من نجع الحوالد . . وضاق العمدة به . . ودارت بينهما معركة كلامية حادة . . قال العمدة فى

نهايتها لشيخ الكواسر : « أنت رجل تسكن الصحراء مع قبيلتك . . وتعيش فى الزمن الماضى . . مثل الهمج ! » . . فغضب شيخ الكواسر وكاد أن يقاتل أهل السبيل بقبيلته . . لكنه عاد إلى بلده وهو فى أشد حالات الغضب . . بعد أن شتم جميع شيوخ السبيل . . وبعد أن سب للعمدة (سنسفيل) أجداد أجداده . . واتهمه — بلغة عربية فصحى — بأنه رجل (مره) .

* * *

وصمت هاشم قليلا ريثما يتناول (الدور) الثانى من القهوة ثم قال :

— المهم الآن أن عمدة السبيل يعتقد بأن كل ما حدث له بسبب غضب الشيخ موسى الكاظم عليه .

وسأله صابر :

— كيف ؟

فرد هاشم :

— العمدة ذهب ثلاث مرات لزيارة الشيخ الكاظم فلم يخرج عليه من خلوته .. وتشاءم العمدة .. لأنه كان يخرج عليه بمجرد أن يقول له تابعه أن عمدة السبيل فى الخيمة .

فقال صابر :

— لكننا نسمع أن الشيخ الكاظم .. مرة يخرج على زواره .. وأكثر المرات لا يخرج .

فقال هاشم وهو يضحك :

— فى آخر مرة .. قال العمدة للتابع : (قل للشيخ عمدة السبيل يرجوك أن تخرج إليه .. لأنه قطع من أجلك أكثر من عشرين كيلو ..) فجاء التابع وقال للعمدة (الشيخ لا يريد أن يرى وجهك ! !) .. وبعد ثلاثة أيام حصلت (العلقة) .

ثم صفق هاشم بيديه وقال :

— أنا شامت فيه والله .. كان إذا قابلنى يكلمنى من طرف أنفه .. لكن الحوالدة — الأسود — أمسكوا هذا الأنف ومرغوه فى التراب .

فسأله صابر :

— هل تعتقد أن العمدة رفض قتالنا لهذا السبب ؟

فهز هاشم رأسه وقال :

— لا .. طبعا .. ولكننى أعتقد أنه تصرف كرجل (مسئول) عن الأمن .. علاوة على أن شيوخ السبيل (عاقلين) جدا .. بعكس شيوخ بلدنا الأعزاء أمثال (وهو يخفض صوته) ماريشال الحو الحاج منازع !

فقال سعيد فى خشونة وحماس :

— كلام فارغ .. أهل السبيل خافوا منا .

فالتفت صابر ناحيتى وقال :

— ما رأيك أنت ؟

فقلت : أنا رأيى أن أهل السبيل أرقى ناس فى المنطقة .. والتعصب القبلى عندهم أقل منه فى أى مكان آخر .. وهذا هو السبب فى عدولهم عن القتال .

فقال هاشم وهو يغمز بعينه :

— طبعاً ياعم .. من يشهد للعروسة ؟ .

فرد صابر الذى كان معجبا بأهل السبيل :

— هذا الكلام مضبوط .. فالسبيل هى القرية الوحيدة التى ترسل أولادها لشراء الصحف من البندر .

فصاح سعيد فى امتعاض :

— ما هذه (الفلسفة) الكذابة ؟ . . . مادخل شراء الصحف بناس يضرب عمدتهم ولا يتحركون ؟ . . . ثم ما معنى قراءة الصحف أنا — والله العظيم — بمجرد أن أرى رجلا فى يده صحيفة يسقط من نظرى فى الحال . .

فقال صابر لهاشم :

— ما الذى تتوقعه مستقبلا ؟

فقال هاشم وهو يضحك :

— واقعة أبوكم مثل الطين ان شاء الله . . . كل الأسواق ستتوقف . . . لا سيما الأسواق التى ببلدة السبيل . . . بعد أن قطع (جلالة) العمدة العلاقات الدبلوماسية والثقافية والاقتصادية مع بلدنا . . وأغلق الحدود والموانىء والمطارات وكافة سبل المواصلات ! !

فقال صابر :

— أسواق السبيل لا تهمنا . . فى سوق البندر الكفاية .

فرد هاشم بنفس الأسلوب الضاحك :

— اطمئن . . الحكومة منعت البلدين من سوق البندر لكيلا تحدث بينهما احتكاك . . وأهل السبيل لا يهمهم هذا . . لأن عمدتهم (يحكم) أكثر من عشر قرى وفى استطاعتهم المتاجرة مع بعضهم . . لكن المصيبة هى مصيبتنا نحن . . فبلدنا تعتمد فى كل شىء على السبيل وأسواق السبيل . . حتى تجار بلدنا الذين يشترون (بلح) السبيل ويدفعون ثمنه مقدما . . بلغنى أن أموالهم ضاعت عليهم .

ثم قال وهو يصفق بيديه :

— أموالنا (جمدت) فى (بنوك) السبيل فأصبحنا كالحداد الذى بلا فحم ! اعملوها أنتم يا خوالد لتقع فيها كل (المملكة) !

وأذهلنى كلام هاشم . . وتخيلت المحنة التى تنتظر قريتى . . وتطلعت إلى نخلة عالية يظهر نصفها الأعلى من خلال سور الخيمة الخارجى . .

وخيل إلى أنها تتمايل يمنة ويسرة لأنها تشعر بالاختناق .. وقلت لهاشم :

— وما الذى تراه ؟

فقال دون أن يفقد مرحه :

— لا شىء .. قريبا جدا باذن الله .. تدورون على البيوت .. وكل منكم يسحب وراءه حمارا .. تتسولون الغلة كما تفعل قبيلة (المساليب) التى تحترف التسول !

ثم وضع يده على خده وراح يغنى على طريقة المتسولين :

جينا عند بيت أبو شنب يكتف الوحش

ويشبه ولاد الأمارة

عايزين شوية شعير للجحش

أحسن يموت ابن الحمارة !!

فجاراه صابر وهو يقلد المتسولين عندما لا يعجبهم ما يقدم إليهم فيقولون فى سخرية وكبرياء وبصوت ممطوط :

« وليه غلطتو فى الكيل يابو . . . . . . ى ! ! »

وانفجر الجميع فى ضحك عال .. ومرة أخرى جاءنا صوت الحاج منازع يزمجر فى الخارج :

— عجائب ! !

ثم سمعناه يخاطب شخصا بجواره . فى غضب :

ـــ سامع العيال ؟ ! . الخيمة قلبوها بوظة !!

ووضعنا الأكف على الشفاه فى ضحك هامس . . وراح هاشم ينفض يده فى سرعة كأنه أبعدها لتوه عن جمرة .. ثم قال فى صوت هامس :

ـ الأحكام العرفية فى كل مكان . . أهرب من أبى إلى نجعكم فأجد أمامى الحاج منازع !

ثم همس فى مسكنه يقلد الشيخ درويش :

ـــ البلاوى لها الصبر !

* * *

(١١)

فى صباح اليوم التالى كنت فى طريقى إلى بيت (صابر) . . وبينما أنا أدخل الدرب المؤدى إلى البيت سمعت الشيخ درويش ينادى خلفى :

— صابر . . ياصابر !

فالتفت إلى الوراء فلم أجد غيرى وغيره . . فسألته :

— أتنادينى أنا ياشيخ درويش ؟

فقال مبتسما يبرر خطأه :

— حسين ؟ . . الحقيقة أنك أنت وصابر تشبهان بعضكما بشكل عجيب ياحسين . . حتى ملابسكما متشابهة . . بالأمس ناديت صابر فقلت له ياحسين . . يبدو أننى عجزت !

ووقفت . . فتقدم منى وقال :

— هل سمعت بعمدتنا المسكين ؟

— ماله ؟

قال وهو يمد يديه أمامه ويرعشهما :

— المسكين يرتعش من أوله إلى آخره . . يتوقع فى كل لحظة أن تنشق الأرض ويطلع عليه عدة شبان من السبيل فينهالون عليه

بالنبابيت حتى يكسروا ضلوعه . . المسكين لا ينام الليل ولا النهار . . البلاوى لها الصبر !

قلت : ولم لا يحترس منهم ؟

قال الشيخ درويش فى تأكيد :

هو يحترس (كويس) . . . إذا خرج من بيته إلى المضيفة يحمل فى يده اليمنى حربة . . وفى يده اليسرى بندقية . . وأمامه يسير خفير ببندقية . . وخلفه شيخ الخفر ومعه بندقية . . هو رجل (ناصح) ..

وضحكت على الرغم من الهم الذى يجثم على صدرى . . فقلت :

— مادام هو (ناصح) هكذا . . فما الداعى للخوف ؟

— أصله سمع أن عمدة السبيل يقول إن له يداً فى ضربه . . قال لمن حوله إن عمدتنا أشار على أولادنا بضربه هو بالذات . . وليلة أمس بلغه أن عدة شبان من السبيل كانوا يتجولون بنبابيتهم بجوار حقله الذى يقع عند الجسر الذى يفصل بلدنا عن السبيل .... المسكين فى كرب عظيم . . بلغنى أنه مكث نصف ساعة وهو يضع (المتاريس) خلف باب حجرته قبل أن ينام . . الأسرة والمراتب والصناديق وكل (الكراكيب) التى بالبيت . . وطلب من أحد الخفراء أن يترك دركه ويقف بالبندقية أمام باب بيته . . المسكين سيشيب قبل الأوان !

وصمت الشيخ درويش قليلا ثم استطرد :

— بلغنى اليوم أنه استيقظ من الفجر . . ركب حماره وصحب معه أكثر من عشرين واحداً من شيوخ قبيلته ليطوف بالعمد وزعماء القبائل يرجوهم أن يسارعوا للصلح بين البلدين . . المسكين يريد الصلح بأى طريقة ليهدأ باله ويستطيع أن ينام . . ناس (تعملها) وناس تقع فيها . . البلاوى لها الصبر !

* * *

تجاوزت عدة بيوت فى الدرب . . ثم طرقت بابا كبيرا ألصق على أعلى جداره طبق كبير من الصينى . . وجاءنى صوت أخت صابر المتزوجة حديثا — من الداخل :

— من ؟

ولما عرفت صوتى تراجعت إلى الداخل دون أن تفتح الباب . . كما تراجعت أنا قليلا عن مواجهة الباب لتحريم التقاليد على المتزوجة حديثاً أن تقابل أحداً غير زوجها وأخوتها وأبيها . . وما لبث الباب أن فتح وأطلت منه والدة صابر وقالت لى مرحبة وهى تبتسم :

— أهلا بالحبيب . . ادخل ياحسين .

وجلست على أول سرير حبال صادفنى . . وكانت (العروسة) قد توارت فى إحدى الحجرات.. وقالت لها أمها على سبيل المجاملة :

— أتهربين من حسين يابنت ؟ !

وسألتها عن صابر . . فقالت لى إنه نائم فى حجرته . . وذهبت لإيقاظه ثم عادت لتجلس أمامى على (برش) صغيرة مفروشة على الأرض . . وسألتنى فى إشفاق :

— ما العمل الآن بالنسبة (لعروستك) ياحسين ؟

قلت لها وأنا أتطلع إلى شجرة الليمون الصغيرة التى تقوم فى الركن الشرقى من البيت فى وحدة حزينة :

— العمل . . عمل الله .

قالت وهى تمصمص شفتيها ، وملامحها السمراء الوديعة يكسوها الأسى :

— أنا حزينة من أجل أمك . . كانت تبكى أمس من أجل (بدوية) . . تقول إنها تعتبرها مثل بنتها . . فاطمة أيضاً كانت تبكى . . قلت لهما ربنا موجود . . عنده كل الخير .

ثم التفتت ناحية الحجرة التى توارت فيها ابنتها وقالت كأنها تذكرت شيئاً :

— اعملى شاى يارقية

وجاء صابر . . سلم على وجلس بجوارى بعد أن غسل وجهه . . وقلت أستشيره :

— ما رأيك لو قطعت إجازتى وسافرت ؟

قال فى انزعاج :

— لم ؟

قلت : كان المفروض أن يكون (كتب الكتاب) فى هذه الإجازة . . وها أنت ترى الأمور تعقدت وأصبحت المسألة كلها فى خبر كان . . فما الداعى لوجودى ؟ . .

وسرح صابر قليلا . . كأنما لايزال يغالب النوم . . وقال وصوته لم ينشط بعد :

— وأبوك ؟ . . هل يوافق ؟

قلت : هو لن يوافق . .لكننى لاأطيق البلد الآن . . كل شئ فيها يذكرنى بالمأساة . . علاوة على أنه لايوجد أى أمل للصلح بين البلدين (ثم أخبرته بما رواه لى الشيخ درويش من سعى عمدتنا للصلح . .) وقلت : لنفترض أن الصلح قد تم . . فهل تعتقد أن الزواج أو حتى (كتب الكتاب) ممكن ؟ . . الصلح ماهو إلا هدنة مؤقته بين البلدين . . أما أن تكون هناك مصاهرة بينهما فهذا من رابع المستحيلات . . حتى الشيخ صالح نفسه لايستطيع أن يتفوه مع أحد بأمر كهذا . . كل الطرق مسدودة . . فما الذى يبقينى هنا ؟ . . ليس لى أى دور ألعبه . . كما لا أستطيع أن أعترض على أى شئ !

وأسند صابر يده على رأسه دون أن يتكلم . . وقالت أمه وهى تتنهد فى هلع :

— انجدنا يارسول الله . . قفوا معنا ياأهل الله .

ورفع صابر رأسه وقال فى تردد :

— اصبر ياحسين . . من يدرى ؟

قلت : هل تتخيل أى حل ؟ . . أنا شخصيا لا أتخيل أى حل . . ! أنا يائس تماما من هذه الناحية . . السفر أحسن علاج . . ربما أنسى . . ربما !

وكادت أن تغلبنى دموعى لولا أننى تجلدت . . وحدق صابر فى وجهى طويلا ثم قال فى حماس :

— نسافر معا ياحسين ! . . غداً نسافر !

فضربت أمه صدرها بيدها وقالت له :

— تسافر ؟ . . أهذا كلام تقوله يا أهبل ؟ . . بدل أن تجبر بخاطر حسين وتصبره ليكمل أجازته . . تقول له نسافر معا ؟

ثم التفتت إلى وقالت فى رجاء وكأنها تبكى :

— وعهد الله ما تسافر ياحسين يابنى . . أمك لو عرفت تموت فى الحال أنت عارفهاياحسين هى أنجبتكم بعد غلب . . (سايقة) عليك النبى تكمل أجازتك يابنى . . ربنا عنده كل الخير .

ثم رفعت يديها إلى السماء وقالت وصوتها يتهدج :

— نذراً على يارب . . أن أذبح (جدى) أمام عتبة (الشيخ عمران) فى ليلة مولده . . لو هدأت الأمور وتزوج حسين بن أمينة من بدوية بنت حليمة !

ثم قالت لى وقد عاد الإشراق إلى وجهها :

— أنا قلبى يحدثنى بالفرج . . عمرى ماطلبت شيئاً من الشيخ عمران وخيب رجائى أبداً . . هو جدنا ويقف معنا دائماً !

ثم أشارت إلى صابر وقالت فى حرارة :

— إن شاء الله تكون (دخلة) صابر وفاطمة (تقصد أختى) فى يوم دخلتك أنت وبدوية !

ونظر صابر إلى وجهى . . ولما رآنى أبتسم تشجع وقال لها فى مزاح :

— ومن أدراك أننى أرضى بفاطمة ؟ !

فلوحت له بيدها وقالت :

— وهل أنت (تطول) ؟ . . فاطمة — صلاة النبى — مثل (الموزة) التى نضجت على شجرتها . . من يتزوجها كتبت له السعادة كأنه دخل فى بطن أمه من جديد ! !

وضحكنا . . واتفقنا على أن نؤجل السفر مؤقتاً لعل وعسى .

وأفرج عن الشبان الثلاثة بعد أن تحددت لهم (جلسة) . . واستقبلتهم القبيلة استقبال الغزاة الفاتحين . . وكان من رأى الشيخ طه أن يكون استقبالهم صامتاً مجاملة لأهل السبيل . . على أساس أن الوفود من البلاد الأخرى تسعى للصلح بين الفريقين . . ولكن عمدة السبيل يرفض بقوله : « سنصطلح . . ولكن بعد سنة ! » . . فإذا كان استقبال الشبان الثلاثة صامتا كان ذلك أفضل لإعطاء الفرصة للساعين للصلح بالضغط على العمدة . . ولكن الحاج منازع حلف بالطلاق من بيته أن يكون استقبالهم يليق (بمقامهم) وليكن بعد ذلك مايكون . . وفعلا . . استدعى (الطبالين والزمارين) وطلب من النساء أن تزغرد . . وخرجت القبيلة كلها لاستقبالهم . . ولما وصلوا بموكبهم عند الخيمة وقف الجميع فى الساحة فى حلقة كبيرة ودق لهم الطبالون دقة الحرب . . وبدأت رقصة السيف . . وكان أول من نزل الحلقة هو الحاج منازع . . خلع نعليه فى سرعة . . ثم قذف بعباءته إلى ابنه . . وتناول فى يده اليمنى سيفاً . . وفى اليد اليسرى عصا صغيرة . . وراح يقفز قفزات سريعة مدروسة ويهز سيفه فى رعشات أنيقة تعبر عن فن المبارزة بالسيف . بينما قدمه اليمنى تضرب التراب إلى الوراء بقوة عند كل قفزة . . ثم وقف قبالة الشيخ طه وهز السيف فى وجهه وهو يصرخ صرخة الحرب — دلالة على أنه يدعوه للرقص . . وتناول منه الشيخ طه السيف . . ودار فى الحلقة وهو يهز السيف ويبتسم دون أن يقفز لكبر سنه . . والجميع

يتطلعون إليه فى حب وإشفاق . . ثم وقف قبالة الشيخ حمد وهز السيف فى وجهه وصرخ فيه بقوة وهو يناوله السيف لينزل إلى الحلقة . . ورقص أكثر الشيوخ وأكثر الشبان بينما دقات طبول الحرب العنيفة ترج الأرض رجا . . وجاء الكثيرون من أبناء القبائل الأخرى بخيولهم فرقصوا بها على صوت المزمار . . وأطلق البعض الأعيرة النارية فى الهواء . . وفجأة تقدم أحدهم — ولم يكن من قبيلتنا — من الشيخ طه وهمس له ببضع كلمات . . وتقدم الشيخ طه من الحاج منازع وأمسك رأسه بكلتا يديه وأماله إلى فمه وهمس له بكلمات . . ورفع الحاج منازع يديه إلى أعلى وصاح فى الطبالين :

— امنع الطبل !

وتوقفت الضجة فى أقل من لمح البصر . . وخيمت على المكان أضخم لحظة صمت رأيتها فى حياتى . . لم يكن يشوبها غير صوت الطبل الوهمى الذى يطن فى أذنى . . وحدق الجميع فى الحاج منازع . . وتساءل الشيخ حمد :

— ماذا حصل ؟

فقال الحاج منازع فى حزم :

— الواجب أن نمنع الطبل . . عمدة السبيل طلع (راجل[٦]) !

ولما رأى الدهشة فى الوجوه استطرد موضحا :

— أحد الخبثاء من قبيلته . . طلب منه أن يدعى فى المركز أن أولادنا ضربوه بقصد السرقة . . لكنه رفض . . قال له : (عيب . . الخوالد ليسوا من أهل ذلك) . . والواجب الآن أن نجامله ونمنع الطبل !

وصاح أكثر شيوخ القبيلة فى حماس :

— فعلا لاداعى للطبل . . مادام هو قد قال ذلك !

وقال الشيخ طه وهو يبتسم فى سعادة :

— اجلسوا على الأسرة . . وابدأوا فى الحكايات الحلوة . . وتناولوا الغداء معا . . وامنعوا الضيوف من أن يذهبوا .

وصاحت منصورة — وكانت تقف وسط الحلقة — فيمن حولها :

— عمدة السبيل فعل ذلك لأن جده السابع أمه من الخوالد . . دماء قبيلتنا التى فى عروقه هى التى علمته الرجولة ! !

ونحرت ثلاثة خراف — على حساب شيوخ القبيلة — لغداء الجميع . . وساهمت منصورة فى الوليمة عندما صاحت فى الشاب الذى تبدو عليه البلاهة

— ياولد ياعبد الحارث . . اذبح الخروف الأسود الذى به (نوارة) بيضاء فى ذيله !

كان الوقت عصرا عندما كنا نمر – صابر وأنا – أمام بيت الشيخ طه . . كان يجلس وحده على سرير صغير من الحبال – لا يتسع لسواه – أمام البيت . . بينما باب الديوان (مضيفته الخاصة) مفتوح . فرددنا عليه السلام . . فقال فى ود :

– تعالوا يا أولاد . .

فتقدمنا منه وسلمنا عليه . . فصافحنا وهو جالس . . وأشار إلى سرير بجواره وقال :

– اقعـدوا

فجلسنا دون اعتراض . . فصفق بيديه وهو يلتفت ناحية باب بيتـه :

– قهوة يا منازع !

فقلت له فى أدب :

نشكرك ياشيخ طه . . لا داعى للقهوة .

فقال وهو يبتسم :

– عيب (ياشيخ) حسين . . نحن عندنا كم (ولد) مثلك ومثل (الشيخ) صابر ؟ !

فقال صابر وهو يتململ :

– عندنا (مشوار) ياشيخ طه . . لا داعى للقهوة .

فرد الشيخ طه وهو يبتسم . . وتبتسم معه تجاعيد الثمانين عاما :

— الجلوس مع عمك طه . . أحسن من (المشاوير) ياشيخ صابر .

ونظر صابر ناحيتى دون أن يتكلم . . وقال له الشيخ طه وهو يضحك :

— لماذا تنظر إلى حسين ؟ . . هه ؟ . . طبعا تقول له — بعينيك — هؤلاء العجائز خرفوا . . أليس كذلك ؟ . . لكن لا . . أنت مخطئ ياشيخ صابر . . أنا عندما كنت فى مثل سنك كنت أقول هذا الكلام على أعمامى . . ثم اتضح أننى كنت (غلطان) . . يجب عليك أن تتعظ منى ياشيخ صابر .

فقال صابر فى حرارة :

— أبدا والله ياشيخ طه . . أنا لا أقول هذا عليك . . أنت الخير والبركة والله . . أنا . . آ . .

فلوح الشيخ طه بيده وقاطعه وهو يبتسم :

— أتضحك على يا ولد (بالكلمتين) اللتين تعلمتهما فى تلك (الكلام الفارغ) التى يسمونها المدارس ؟ !

وضحكنا . . فضحك معنا فى سعادة وقال :

— أصلى (فرحان) من الصبح والله يا أولاد . . عمدة السبيل قبل الصلح .

وانفجرت الكلمة فى رأسى انفجار القنبلة . . فقلت فى ذهول :

— قبـل ؟

فوضع سبابته على فمه وقال محذرا :

— هس .

ثم قال فى صوت خافت :

— لا تنشروا الخبر فى النجع . . لأننا لم نوافق على الصلح بعد .

ونظرنا — أنا وصابر — إلى بعضنا فى دهشة . . فقال له صابر :

— أنا لا أفهم شيئا .

فاتسعت ابتسامة الشيخ طه وهو يقول لصابر :

— ومن متى أنت (تفهم) ياشيخ صابر ؟

ثم استطرد يشرح الأمر :

— عمدة السبيل رفض وساطة كل عمد البلاد الذين ذهبوا إليه . . كان غرضه أن يتمكن من ضرب عمدتنا ثم بعد ذلك يوافق عـلى الصلح . . أخيرا ذهب إليه عمدة (العمارية) — بلد الشيخ الكاظم — وقال له إذا وافقت على الصلح . . لك على أن يكون ببلدنا . . ولك على أن أتصل بالشيخ موسى الكاظم ليحضر الصلح لتنتهز هذه الفرصة وتسلم عليه وتطلب منه أن يسامحك . . ووافق العمدة على الفور .

وصمت الشيخ طه قليلا ثم قال :

— وعندما أبلغنا بالخبر قلنا لهم : سنتشاور ونرد عليكم بعد يومين . . ربما نوافق على الصلح . . وربما لا نوافق !

فقال صابر فى ذهول :

— لا توافقوا ؟ . . كيف ؟ . . أنا أعرف أن الصلح من مصلحتنا على الأقل من أجل الأسواق التى توقفت . .

فقال الشيخ طه وهو يبتسم :

— أنا أعرف ذلك ياشيخ صابر . . لكن يجب علينا ألا نظهر بمظهر المتلهفين على الصلح .

ونظر صابر إلى . . فقال له الشيخ طه :

— لماذا تنظر إلى الشيخ حسين (ياولد) ياشيخ صابر ؟ . . طبعا أنت تقول له — بعينيك — هؤلاء العجائز (مكارين) . . لا . . أنت (غلطان) ياشيخ صابر . . أنا عندما كنت فى مثل سنك كنت أقول ذلك على أعمامى . . لكنك عند ما يأتى اليوم الذى (تحل وتربط) فيه فى القبيلة . . ستضطر لتعلم المكر . . أنا أعرف أننا فى حاجة شديدة إلى الصلح . . وإلا فإننا سنتعب لتوقف الأسواق تعبا شديدا . . ولكن يجب علينا أن ندعى أمام الآخرين بغير ذلك . . أفهمت (ياولد) ياشيخ صابر ؟

قبل أن يكمل الشيخ طه حديثه .. كان قد خرج علينا حفيده (منازع) الصغير .. يحمل القهوة .. غلام أسمر .. شديد السمرة كجده .. ولكن ليس له أنفه العريض .. بل كان أنفه جميلا كأنوف الرومان .. ابتسم عن أسنان بيضاء جميلة .. وقال فى حماس ابن العاشرة وهو يقدم لنا القهوة :

— أنا عندما أكبر .. سأضرب عمدة السبيل أيضا .

وزمجر فيه جده :

— اخرس يا ولد !

ثم قال لنا وهو يشير للغلام :

— «العكروت» هذا سيطلع مثل الحاج منازع .. أكبر خطأ ارتكبته فى حياتى هو أننى أشرت على أبيه أن يسميه (منازع) .. فالولد يريد أن يقلد الحاج منازع فى كل شئ .. حتى «المشية» فى الطريق يحاول أن تكون كمشية الحاج !

ثم هز رأسه واستطرد :

— لكن .. أين الرجال الذين مثل الحاج منازع ؟ .. أنا أذكر أنه عندما كان فى مثل سن هذا الغلام .. ما أن يسمع بامرأة

من قبيلتنا ولدت غلاما حتى يسارع بتسلق أعلى نخلة فيقطع منها (سباطة بلح) ويهديها إليها . . فإذا سئل : (لماذا فعلت ذلك يا منازع ؟) أجاب : لأنها زادت قبيلتنا رجلا ! . . أين هم الرجال الذين مثل الحاج منازع ؟

وسأله صابر وهو يشير إلى :

— هل يستطيع حسين أن (يكتب كتابه) بعد الصلح ياشيخ طه ؟

فقال الشيخ طه بعد تردد :

— كتاب ؟ . . لا أعتقد أن الصفاء بين البلدين يصل إلى هذه الدرجة . . لكن مال الشيخ حسين ومال بنات السبيل ؟ . . بلدنا فيها العشرات من البنات .

وأحسست كأن سكينا حادة انغرست فى أعماق . على الرغم من أننى كنت أتوقع مثل هذا الجواب . . وقال الشيخ طه وهو يهز رأسه :

— ليت صحتى تساعدنى فأذهب إلى الصلح . . كى أرى الشيخ الكاظم قبل أن أودع الدنيا .

فسأله صابر :

— ومتى الصلح ؟

فقال الشيخ طه وهو يلوح بيده :

-- صلح ؟ .. أى صلح (ياولد) ياشيخ صابر ؟ .. نحن لم نوافق على الصلح بعد .. سنتشاور ونرد عليهم بعد يومين .. ربما وافقنا وربما لا ..

* * *

(١٢)

انطلق الخبر فى بلدنا يقول إن الشيخ موسى الكاظم — وليس عمدة السبيل — قد (وافق) على الصلح . . وانطلقت الزغاريد فى كل نجوع بلدنا وفى نجعنا بصفة خاصة . . فقد كانت بلدنا فى كرب شديد بسبب توقف الأسواق وكساد الحال . . وطاف رجل من قبيلة عمدتنا يركب جوادا فى نجوع بلدنا ونادى فيها بأن تستعد كل قبيلة لإرسال وفد مؤلف من عشرة أشخاص إلى بلدة (العمارية) — بلد الشيخ الكاظم — على أن يكون تجمع الوفود بمقر عمدتنا .

واستبشر الناس خيرا وراحوا يهنئون بعضهم فى الطرقات . . واستعدت قبيلتنا لإرسال عشرة من شيوخها . . لكن الحاج منازع أصر على أن تذهب قبيلتنا بشيوخها وشبابها — وأطفالها إن أمكن — إلى مكان الصلح . . وقال إنها فرصة كى ترى البلاد (الخوالد) وتتعرف عليهم لتؤمن بأنهم يختلفون عن أى قبيلة أخرى على ظهر الأرض ! ! لكن شيوخ قبيلتنا — وعلى رأسهم الشيخ طه — تصدوا له وقالوا إن عشرة أشخاص فيهم الكفاية . . لكنه أصر على رأيه . . ودار بينه وبينهم جدال طويل . . وساعدته (منصورة) على رأيه بكل ما تملك من قوة وحماس . . وأبدت استعدادها أن ترتدى ملابس الرجال وتذهب معهم لكى تظهر الخوالد بين البلاد بمظهر (محترم) . ! وبعد أخذ ورد اتفق الجميع على أن يذهب من قبيلتنا ثلاثون شخصا

بين شيخ وشاب . . وكان من رأى الحاج منازع أن يذهب الشبان فقط لأنهم — كما قال — هم الذين (شرفوا) القبيلة بضرب عمـدة السبيل . . وأخيرا وافق على أن يكون الوفد خليطا من الشيوخ والشبان.. لكنه اشترط أن يحمل أعضاء الوفد النبابيت الحمراء اللامعة لكى يرهبوا بها (الأعداء) . . ومرة أخرى تدخل الشيخ لمنع حكاية النبابيت هـذه . . ووافقهم الحاج منازع على مضض وكنا أنا والزميل صابر ضمن الوفد . . ومع يقينى بأن الصلح لن يحل مأساتى الخاصة . . إلا أن الفضول الشديد كان يستبد بى لرؤية الشيخ موسى الكاظم الذى يتردد اسمه على الأفواه كالأسطورة — وركبنا الجحوش القوية ذات الألجمة والأعناق المرفوعة . . وقالت لى أمى وهى تودعنى : « عندما ترى الشيخ الكاظم يشير . . اقبض قبضة من التراب الذى يسير عليه وأحضرها معك لفرشها فى بيتنا لأنها تمنع الحسد والشياطين ! »

وتحرك موكبنا — الذى يضم وفود كل قبائل بلدنا — يتقدمه عمدتنا ، وعن يمينه ويساره مشايخ البلد وزعماء القبائل وضمنهم الحاج منازع . . وكانت الوفود قد اندمجت واختلطت حتى بدت وكأنها وفد واحد لقبيلة واحدة . . ووصلنا بلدة (العمارية) بعد جهد جهيد . . فهى تبعد عن بلدتنا بأكثر من عشرة كيلو مترات . . عبرنا خلالها النيل وسرنا فى الصحراء الغربية — أو جبل البرقة كما يقول قومنا — حتى لاح لنا النجع الذى فيه خلوة الشيخ ومقر قبيلته . . كان نجعنا فريدا يقع وحده فى قلب الصحراء . . اشتهر بسعة بيوته

وعلوها . . وكثرة الآبار وأشجار « اللبخ » والدوم . . بجانب النخيل . . واستقبلتنا قبيلة الشيخ استقبالاحارا . . وهرع غلمانها لتسلم (الركائب) وربطها وقادنا الشيوخ منهم إلى خيمتهم التى لم أر مثلها فى الاتساع . . وكانت الأسرة موضوعة فى الخيمة بحيث يجلس كل وفد فى المكان المخصص له . . ويبدو أننا وصلنا مبكرين . . إذ لم نجد إلا وفد قبائل (الأنصار) . . ابتسموا لنا — وهم فى أماكنهم — بمجرد أن رأونا . . وأشار إليهم الشيخ علوان — وقد جلس بجوارنا — وقال :

— أطيب ناس . . كل أموالهم يضيعونها فى الذبائح التى يصلحون بها القبائل المتخاصمة . . وقد تعبوا كثيرا فى إقناع عمدة السبيل بالصلح . . ولولا سبق قبيلة الشيخ الكاظم وبركة الشيخ . . لكان الصلح عندهم . .

وكان مكان جلوسنا يواجه السقيفة الوسطى . . وتطلع الشيخ علوان إلى الخيمة وقال فى حسرة :

— هذه أكبر خيمة فى الدنيا . . لها ثلاث سقائف وكأنها ثلاث خيام . . الأرض هنا بلا ثمن . . الجبل موجود والذى يستطيع أن يبنى فليبن .

وراح شيوخ (العمارية) يدخلون ويخرجون يرحبون بنا وينتظرون بقية الوفود . . وكان بعض شبانهم يدخلون الخيمة وقد شمروا عن

أكمامهم يحادثون بعض الشيوخ فى سرعة ثم يخرجون . . وعرفنا أنهم منهمكون فى تجهيز الذبائح لغداء الوفود . . ودخل أحد الوفود يتقدمه زعماؤه بزعابيطهم التى لاحظت أن أكمامها أوسع مما يجب . . فأشار إليهم الشيخ علوان وقال فى فخر :

— هؤلاء جعافرة مثلنا . . ألا ترى أكمام زعابيطهم الواسعة التى تدل على القيادة والسيادة ؟ .

وتوالى دخول الوفود — وراح الشيخ علوان يعدهم ويسرد تاريخهم على طريقة المؤرخين :

— هؤلاء الذين يتلفعون الشيلان الملونة هم قبائل الكنور وقبائل وادى العرب . . الناس يظنونهم من النوبيين بينما هم من (العرب) الذين سكنوا وسط النوبيين وخالطوهم . . أما أولئك الذين يرتدون العباءات البيضاء والحمراء فهم عرب العبابدة . . خبراء الجبال وسادة الصحراء . . حاربوا الجعافرة فى الزمن القديم مائة سنة . . جدهم الكبير كان إذا دخل الحرب هز (الدرقة) وقال :

زمان يَادَرَقْ مامَسكْنَاكْ ولا الشمس وقفت قبالك

ولا على الفرسان قلبناك لما ألِعَتّ قَطَّعْ حِبَالَكْ

ثم هز رأسه وقال فى نشوة :

— كلام مثل العسل والله .

ثم أشار إلى أحد الوفود — أثناء دخوله — وقال :

— هؤلاء هم (العليقات) كانت القبائل تتعالى عليهم فى الزمن القديم . . ولما أراد الأتراك أن يجندوا الناس فى العسكرية تصدى لهم (كبير) العليقات . . قابل (كبير) الأتراك وكلمه باللسان التركى . . لأنه كان يعرف رطانة الأتراك . . وقال له أنا كبير كل العرب . . مستعد أن أعطيك رجالا على شرط أن تعطينى مديرية كبيرة فى الوجه البحرى . . نسكنها ونزرع فيها . . أما الآن فإننا ناس من الصحراء لا استقرار لنا . . واقتنع كبير الأتراك . . ومن ذلك اليوم شمخ العليقات بأنوفهم وراحوا يقولون لنا (نحن الذين نجيناكم من الأتراك) .

ثم أشار إلى أحد الوفود وقال :

— قبائل النصارى . . لا يعيبهم إلا أنهم غير مسلمين . . لكن قسيسهم الكبير يده فيها بركة . . إذا مرض أحد الأطفال وحرنا فى علاجه نذهب به إليه (فيعزّم) عليه فيشفى فى الحال .

ودخل وفد السبيل . . وكان عددا كبيرا جدا . . وما أن لمحهم الشيخ علوان حتى عقد ما بين حاجبيه الأشيبين وقال فى ثورة مكبوتة :

— حضروا أولاد الستين كلب . .

كان عمدة السبيل يتقدم الوفد وحوله شيوخهم يرتدون الزعابيط الجميلة وبعضهم يرتدى (الجبة) . . وهمس صابر فى أذنى قائلا فى أعجاب :

— انظر إلى رقيهم . . أكثرهم يحمل فى يده الصحائف المطوية . . حتى مشيتهم جميلة مثلهم . . إنهم يتبخترون وكلهم إحساس بأنهم أرقى من كل هؤلاء . . انظر إلى (الجبة) التى يرتديها بعضهم . . هل ترى من يرتدى (الجبة) غيرهم !

وسمعه الشيخ علوان . . فقال له فى غضب مكتوم :

— الجبة لباس المشايخ المحترمين الذين يتعلمون فى الأزهر . . مالهم هم ومال (الجبة) ؟ . . هل انقلبوا جميعا إلى (مشايخ) .. أولاد الستين كلب ؟ !

ثم استطرد وهو يبصق على الأرض :

— هم ناس (متنعمين) مثل النساء . . أنا لم أر فى حياتى رجلا جاوز الخمسين يرتدى الملابس الحريرية غير عند هؤلاء الناس (البزرميط) ! !

وهز صابر رأسه يوافقه . . فقال الشيخ علوان يعزز حجته :

— لا يغرّنك منظرهم . . هؤلاء عمرهم ما ذبحوا لضيفهم ذبيحة.. أعظم ما فيهم إذا استضافك ذبح لك دجاجة . . والله العظيم لولا بركة الشيخ الكاظم ما حضرت الصلح ولا (عبرتهم) !

واكتملت الوفود . . وراح الجميع ينتظرون قدوم الشيخ الكاظم بعد أن جاء تابعه وقال إنه (سيطلع عليكم) . . وكانت خلوة الشيخ تقع خلف الخيمة . . بحيث لا نراها من مجلسنا . . وراح زعماء الوفود يحيون بعضهم بعضا — باستثناء وفدنا ووفد السبيل — وكان الشيخ صالح — والد بدوية — ضمن وفد بلده . . لمحنى من بعيد وابتسم لى دون أن يلمحه أحد . . وشعرت بعدها برغبة شديدة فى البكاء . . على أن عمدتنا كان أسعد الجميع . . كان يحادث هذا . . ويتودد إلى ذاك . . ولا يكف عن الحديث والابتسام كأنه العريس فى ليلة زفافه . . بينما أصوات الخيل والجمال والحمير — التى جاءت بها الوفود — تملأ الفضاء بصهيلها ونهيقها وكأنها لجيش كبير يستعد للتحرك .

وظهر الشيخ .

وذهلت عندما رأيته . . كنت أتخيله عملاقا من العمالقة . . فإذا به رجل أسمر اللون . . نحيف الجسد . . يميل إلى الطول قليلا . . يرتدى رداء أبيض . . ناصع البياض . . وعمامته بيضاء — كبيرة نوعا ما — ويضع على كتفيه عباءة بيضاء أيضا . . وكانت له ذقن خفيفة غطى بياضها على سوادها . . واسع العينين . . قسمات وجهه فيها براءة ووداعة . . حتى ليخيل لمن يراه أنه شاب فى العشرين . . يحف به عن يمين ويسار عدة أفراد من قبيلته .

هبت الوفود كلها واقفة بمجرد ظهوره . . ونظر إليها وابتسم قليلا . . وخيل إلى أن ابتسامته يخالطها شئ من الخجل . . رفع يده فوق عمامته وأنزلها فى حركة سريعة . . وفتح فمه . . لست أدرى ماذا قال . . لكننى سمعت القريبين منه يقولون فى سرعة وحماس : « وعليكم السلام يامولانا ورحمة الله » . . وتمتمت الوفود بطريقة غير منتظمة : « وعليكم السلام يامولانا » . . وسار الشيخ فى صمت.. بينما اشرأبت الأعناق تنظر إليه مبهورة الأنفاس . . وواصل الشيخ سيره . . واعتلى عدة درجات تؤدى إلى السقيفة الوسطى . . وهناك جلس على سرير من الحبال — وحده — وقد شبك يديه ووضعهما فى حجره . . وجلست الوفود بعد جلوسه .

رباه . . ما سر هذا الرجل ؟ . . أزهرى هو . . أنهى دراسته فى الأزهر قبل أن يدخل إلى خلوته . . ورث عن أبيه أملاكا تزيد على الخمسين فدانا . . غير حوش كبير للنخل . . وزعها كلها على المعدمين ولم يبق منها غير القليل . . أى أننا لا نستطيع أن نتهمه بالجهل أو بطلب المال . . كما أنه ينتمى إلى قبيلة تعتبر من أكبر قبائل المنطقة . . هو أيضا ليس فى حاجة إلى (عزوة) . . ما سره إذن ؟ . . علم ذلك عند ربى .

بعد قليل وقف عمدة (العمارية) . . وقف بجوار السرير الذى يجلس عليه الشيخ . . وبدأ يخطب . . حمد الله وأثنى عليه . . وقرأ

بعض آيات من القرآن الكريم تحث على الصلح بين المتخاصمين وشكر وفد السبيل ووفد الشرقية — اسم بلدنا — على تفضلهما بقبول الصلح فى بلده . . كما شكر بقية الوفود على تجشمها السفر الطويل للمساهمة فى الصلح . . ثم جلس . . وقام خطباء آخرون من بلدته . . وقالوا كلاما مشابها لما قاله . . ثم توالى خطباء الوفود — باستثناء بلدنا والسبيل — فقالوا كلاما مقاربا لما قاله من سبقوهم .

ووقف الشيخ . . ودق قلبى بعنف وأنا أرى الأنظار تتجه إليه . ويعم الصمت . . وبدأ يتكلم . . لم يكن يخطب . . كان يتكلم فى هدوء وفى بساطة شديدة . . وكان فى صوته رقة . . وكانت لغته سليمة . . قال والابتسامة الخجلى ترف على شفتيه :

« السلام عليكم ورحمة الله » . . ثم صمت قليلا وقال :

« أهل السبيل . . وأهل الشرقية أعزاء علينا . . أحباء إلى قلوبنا . . لا نحب أن يكون بينهما خصام . . الصلح بينهما يحبه الله ورسوله . . ويحب من يسعى إليه أو يساهم فيه . . وإننى أرى أن يكون الصلح بينهما تاما » .

وصمت الشيخ . . وحبست الأنفاس . . فقال فى تحذير وقد تغير صوته :

« لا تكونوا كالذين فسدوا فى الأرض فاجتثت جذورهم . . بينما أجدادكم من خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » .

ثم رفع يديه إلى أعلى وقرأ بصوت أقرب إلى البكاء .

« ألم تر كيف فعل ربك بعاد . . إرم ذات العماد . . التى لم يخلق مثلها فى البلاد . . وثمود الذين جابوا الصخر بالواد . . وفرعون ذى الأوتاد . . الذين طغوا فى البلاد . . فأكثروا فيها الفساد . . فصب عليهم ربك سوط عذاب » ؟

وأنزل الشيخ يديه . . وعادت الابتسامة الخجلى إلى شفتيه . . وحدقت فيه الأعين فى دهشة وفضول وخشوع . . ورأيت صابر وقد انحرف قليلا يحدق فى الشيخ وفمه مفتوح عن آخره . . وقال الشيخ :

« يجب أن يعود السلام القديم بين الشرقية والسبيل . . وأنا أرى أن يتزوج عشرة شبان من الشرقية — على بركة الله — فى السبيل . . وأن يتزوج عشرة من السبيل فى الشرقية . . لتذوب العداوة مع الأيام . . فهل أنتم موافقون » ؟

وسكت الشيخ . . ونظرت الوفود كلها إلى وفد بلدنا ووفد السبيل . . ولم يتكلم أحد من الوفدين . . راحوا يحدقون فى بعضهم فى بلاهة دون أن يتفوه أحد منهم بكلمة . . كأنهم أصيبوا بالبكم . .

وقال الشيخ وهو يبتسم ابتسامته الخجلى .

— هل أنتم موافقون يرحمكم الله ؟

وصرخ عمدتنا بأعلى صوته :

— موافقون يامولانا . . موافقون .

ثم ضرب صدره وصاح فى لهفة الغريق :

— أنا مستعد أكون أول واحد يتزوج من السبيل .

وحدجه هاشم — ابنه — بنظرة حادة .

ووضع عمدة السبيل يده فوق عمامته الكبيرة وقال وهو يبتسم :

— أمرك يامولانا . . أمرك !

فقال الشيخ وهو يرفع يديه إلى أعلى :

— الفاتحـة . .

وقرأت الجموع الفاتحة فى خشوع . . وبدأت وفود بلدنا تصافح وفود السبيل وتختلط بها وتحادثها . . ولم أكن قد استوعبت ما حدث تماما . . لذا لم أشعر بالشيخ صالح وهو يصافحنى بكلتا يديه ثم يضمنى إلى صدره . . ولم أنتبه إلى عمدتنا وهو يقبل رأس عمدة السبيل ويعانقه . . ثم يمسك بيده ويد الحاج منازع ويضعهما فى بعضهما . . ثم يضغط على ظهر كل منهما ليتعانقا .

ونزل الشيخ من السقيفة . . وكفت الوفود عن الحركة . . وعمها الصمت . . وبنفس الطريقة التى جاء بها . . عاد إلى خلوته وهو يحيى الوفود بوضع يده على عمامته فى حركات سريعة والابتسامة الخجلى ترف على شفتيه .

وجلست الوفود بعد أن توارى الشيخ عن الأنظار . . ودخلت الصوانى وعليها الأطباق الكبيرة وقد فتت فيها الخبز واللحم المغمور بالمرق . . ووضعت على (البروش) المفروشة على الأرض . . وبدأت الوفود تتناول غداءها والأحاديث الباسمة عن (بركة) الشيخ تدور بينها . . وهمس صابر فى أذنى وهو يضحك فى سعادة :

— من حسن حظك أن المضروب كان عمدة . . الذى لا يصلح لثأره غير عمدة مثله . . وإلا لما رأيت (بدوية) بقية عمرك !

* * *

ونحن نعبر النيل . . قلت لصابر :

— أنا لا أصدق أن الأمور تنتهى بهذه السهولة .

فرد صابر فى دهشة :

— لماذا ؟

قلت وأنا أتأمل سربا من الحمام (الجبلى) يحوم فوق المراكب الشراعية التى تنقل الوفود . . ثم يحط على أحد بروج بلدنا :

— هل تعتقد أن أهل السبيل يتحملون رؤية (عرسان) عشرة فى بلدهم بعد الذى حدث ؟

فقهقه صابر وقال وهو يضغط على عمامته ليدارى شعره الغزير .

— إنه الشيخ موسى الكاظم . . وما أدراك ما الشيخ موسى الكاظم . . قومنا — يابنى ! — يخالفون أهم قوانين الدولة بكل بساطة . . لكنهم لا يجرءون على مخالفة الشيخ موسى الكاظم . . ألم تر عمد البلاد وكيف يقفون أمامه فى خشوع ؟ . . أنا من هذه الناحية مطمئن جدا . . وغدا ترى !

وسمعنا الشيخ علوان . . فصرخ وهو يعقد ما بين حاجبيه الأشيبين :

— من ؟ . . نحن نتزوج من هذه البلد (البرزميط) ! ؟ . . ملعون أبوهم .

فقال له صابر فى دهشة :

— لكن الشيخ موسى الكاظم قال هذا . . وسمعكم قلتم (حاضر) . . فهل تخالفونه ؟

فاستند الشيخ علوان بيده على حافة المركب وقال :

— نحن قلنا له (حاضر) لكيلا يغضب علينا . . فهو رجل مبروك . . لكننا لن ننفذ كلامه الخاص بالزواج . . وهو لن يعرف ذلك . . سينسى الأمر كله مع الأيام ! !

وحدق صابر فى وجهى بدهشة شديدة دون أن يتكلم .

* * *

استقبلنا النجع بفرح ظاهر بعد أن سبقتنا إليه أخبار الصلح .. وانطلقت الزغاريد من أكثر من بيت .. ورأيت الشيخ درويش يجلس تحت نخلة صغيرة .. وهرعت إليه .. وأخبرته بكل ما دار فى الصلح .. وسألته :

— ما رأيك ؟

فهز رأسه قليلا ثم قال :

— لا أظن أن حكاية الزواج هذه تتم .. ربما تحدث بعد سنة أو سنتين .. وربما بعد عشر سنوات .. وربما لا تتم نهائيا .

ورحت أصغى — مع كلماته — إلى صوت يمامة وقفت على جدار قريب ، وراحت تترنم فى صوت حزين .. كان فى صوتها ذلك الشجن الذى يوحى بإحساس الحنين إلى الأليف الغائب .. لكنها لم تلبث أن طارت فى إنزعاج عندما هبت على النجع عاصفة رملية حجبت الرؤية ومالت لها أشجار النخيل .. وهرول الشيخ درويش إلى بيته وهو يعطس ويهيب بى أن أهرب من العاصفة .. وجلست وحدى أصغى إلى صفير الريح .

جمهورية مصر العربية

مطبوعات

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

ـ ١٤١ ـ

القــاهرة

١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

وكيل أول

رئيس مجلس الادارة

على سلطان على

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٧١/٦٣٣٤

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

٦٣٥٣س١٩٧١-١٠٠٠٠